ألبير كامو





الغريب

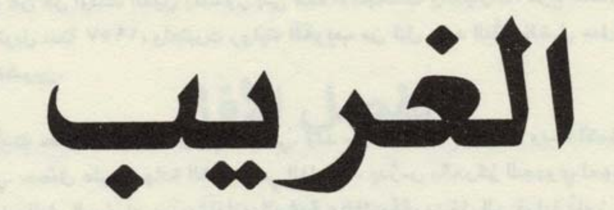
ترجمة

محمد آيت حنّا

منشورات الجمل

رواية

ألبير كامو



ترجمة

محمد آيت حنّا

منشورات الجمل

ألبير كامو: الغريب

ألبير كامو (١٩١٣ ـ ١٠٦٠)، كاتب ومفكر فرنسي، يعدّ أبرز وجوه الأدب الفرنسي في القرن العشرين. تنوّع إنتاجه الأدبي ما بين المسرح والرواية والقصّة والمقالة وخلّف أعمالاً أدبية هامة مثل: **الغريب**، ١٩٤٢؛ **الطاعون**، ١٩٤٧؛ **السقطة**، ١٩٥٦؛ **كاليغولا**، ١٩٣٨؛ **سوء التفاهم**، ١٩٤٤. لقيت كتاباته وما زالت تلقى إقبالاً كبيراً من طرف جميع أصناف القرّاء نظراً لقدرتها على صنع مستويات عديدة من التلقي والتأويل، ولبساطتها وعمقها النادرين. ارتبط اسمه بالفلسفة الوجودية وبالعبث والالتزام، على الرغم من أنّه يقدّم كتابة مختلفة عن كلّ أولئك الذين ينتمون إلى هذه الاتجاهات والتيارات. تُوّج مساره الأدبي بجائزة نوبل سنة ١٩٥٧، واعتبرت روايته **الغريب** من قبل عديد النقّاد أفضل عمل أدبي في القرن العشرين.

محمد آيت حنا: كاتب ومترجم مغربي. وُلد سنة ١٩٨١ بالرباط وبها أكمل مساره الدراسي. حصّل على شهادة التبريز في الفلسفة. يدرّس بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بالدار البيضاء. من مؤلفاته: **الرغبة والفلسفة**، مدخل إلى قراءة دُلوز وغوتاري (الدار البيضاء ٢٠١٠)، صدر له عن منشورات الجمل: **كاظم جهاد: حصّة الغريب، شعرية الترجمة وترجمة الشعر عند العرب**، ترجمة (٢٠١١)؛ **أغوتا كريستوف: الدفتر الكبير**، رواية، ترجمة (٢٠١٢).

ألبير كامو: الغريب، ترجمة: محمد آيت حنّا
الطبعة الأولى ٢٠١٤

تلفون وفاكس: ٢٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الفصل الأوّل

١

اليوم ماتت أمّي[١]. أو لعلّها ماتت أمس. لستُ أدري. وصلتني برقية من المأوى: «الأمّ توفيت. الدّفن غداً. احتراماتنا». وهذا لا يعني شيئاً. ربما حدث الأمرُ أمس.

يقع مأوى المسنّين في مِرنغو Marengo[٢]، على بعد ثمانين كيلومتراً من مدينة الجزائر. سأستقلّ الباص في الساعة الثانية وأصِلُ بعد الظهر، هكذا يكون بوسعي أن أسهر [بجانب جثمان أمّي ليلتها الأخيرة[٣]] وأن أعود غداً مساءً. طلبتُ من رئيسي إجازة يومين، وما كان بوسعه رفض طلبي مع وجود حجّة كهذه.

---

(١) من بين اللّفظين اللّذين يؤديان عادة معنى «أمّ» Maman و mère يستعملُ كامو على لسان مورسو اللّفظ الأكثر حميمية، وهو اللّفظ الأوّل. وترجمته الفعلية في الواقع هي ماما. بينما يستعملُ على لسان الآخرين لفظ mère. لكنّا فضلنا استعمال لفظ أمّ الذي لا تعوزه الحميمية بدل لفظ ماما، واستعمال لفظ «والدة» متى تعلّق الأمر بخطاب رسمي موجّه للشخصية.

(٢) الاسم الذي كان يطلق على مدينة حجوط إبّان الاستعمار الفرنسي للجزائر.

(٣) حرفياً، لم يقُل كامو سوى «أن أسهر» وهي عبارة إن كانت مفهومة وتامّة المعنى في الفرنسية، إلا أنّها في العربية لا تحمل المدلول نفسه، وتظلّ ناقصة، لهذا أضفنا الجملة الشارحة بين [ ].

لكنّه بدا غير راضٍ، حتّى أنّي قلت له: «إنّها ليست غلطتي.»، ولم يُجب. حينها فكّرتُ أنّه ما كان حريّا بي قول ذلك. باختصار، ما كان عليّ الاعتذار. لا بل إنّه هو من كان يتوجّب عليه تقديم تعازيه لي. لكنّه قطعاً سيفعل ذلك غداً، حين يراني في حِداد. أمّا الآن، فإنّ الأمر يبدو كما لو أنّ أمّي لم تمت بعد. لكن بعد الدّفن فعلى العكس، سيكون الأمر قد قُضيَ وسيكتسي كلّ شيء سمتاً رسمياً.

ركبتُ الباصَ في الساعة الثانية. كان الجوّ حاراً. وقد تناولتُ، على عادتي، غذائي بالمطعم، عند سيليست. كان الجميع حزيناً لأجلي، وقالَ لي سيليست: «ليسَ للمرء سوى أمّ واحدة» وعندما هممت بالانصراف رافقوني حتّى الباب. كنت مشوّش الذهن قليلاً، إذ كان يتعيّن عليّ الصعود عند إمانويل لأستعير منه ربطة عنق سوداء وشارة حداد. كان هو قد فقدَ عمّه منذ بضعة شهور.

ركضتُ حتّى لا يفوتني موعد انطلاق الباص. وكلّ تلك العجلة، وذلك الرّكض، مضافاً إليهما هدهدة الحافلة، ورائحة البنزين، واهتزازات الطريق والسماء، كانت بلا ريب السبب الذي جعلني أغفو. لقد نمت تقريباً كلّ مسافة الطريق. ولمّا استيقظتُ ألفيتُني مكوّماً لصق جنديّ ابتسمَ لي وسألني عمّا إذا

كنت آتياً من مكان بعيد. أجبتُ: «أجل» حتّى أتفادى المزيد من الكلام.

يبعد المأوى كيلومترين عن البلدة. قطعتُ المسافة مشياً. وأردتُ رؤية أمّي فورَ وصولي، بيد أنّ البوّاب قال لي إنّه يتعيّن عليّ مقابلة المدير. وبما أنّ المدير كان مشغولاً، انتظرتُ قليلاً. وطيلة انتظاري، ظلّ البواب يتحدث. ثمّ قابلت المدير الذي استقبلني في مكتبه. كان مسنّاً قصيراً، يضعُ وسام فرقة الشّرف. نظر إليّ بعينيه الصافيتين، ثمّ صافحني وأمسك يدي طويلاً حتّى ما عدت أعلم كيف السبيل إلى سحبها من يده. نظر في ملّف ثمّ قال لي: «دخلتِ السّيدةُ مورسو إلى هنا منذ ثلاث سنوات. وقد كنتَ سندها الوحيد.» خلتُه يعاتبني، فبدأت أبرّر موقفي. بيد أنّه قاطعني: «لستَ مضطرّاً إلى تبرير أيّ شيء، يا بُنيّ. لقد طالعت ملّف والدتك. ما كنت تستطيع تلبية احتياجاتها. كانت تحتاج إلى عناية دائمة. وراتبك بسيط. وفي نهاية المطاف، كانت هنا أكثر سعادة.» قلتُ: «أجل، سيدي المدير.» أضاف: «أوَ تعلمُ، لقد كان لها أصدقاءٌ، أُناسٌ في مثل سنّها. وكانت تستطيع أن تشاركهم اهتمامات تعودُ لزمن غير هذا الزّمن. أنت مازلت شاباً، وكانت لتمَلَّ برفقتك.»

كان محقّاً. فحين كانت أمّي بالمنزل، كانت تنفق وقتها في متابعتي بعينيها صامتةً. خلال أيامها الأولى في المأوى كانت

تبكي كثيراً. لكنّ ذلك كان بسبب العادة. وما إن مضت بضعة شهور حتى كانت لتبكي لو أخرجناها من المأوى. وهذا أيضاً بسبب العادة. وإلى حدٍّ مّا كان هذا هو السبب في أنّي لم أكد أذهب لزيارتها في السّنة الأخيرة. وأيضاً، لأنّ الزيارات كانت تحرمني أيام آحادي ـ دع عنك الجهد الذي ينبغي بذله للذهاب حتّى محطّة الحافلة واقتناء التذكرة، ثمّ قطع مسافة ساعتين.

إِستمّر المدير يحادثني. بيد أنّي كنت أكاد لا أسمع شيئاً. ثمّ قال: «أعتقد أنّك ترغب في رؤية والدتك؟» قمتُ دون أن أردّ بشيء، وسبقني إلى الباب. وعلى الدرج، شرح لي الأمر: «لقد حملناها إلى غرفة حفظ الموتى الصغيرة خاصتنا، حتّى لا نؤثر على مشاعر الآخرين. فكُلما حدث أن مات أحد النزلاء يصير الآخرون عصبيين ليومين أو ثلاثة. وهذا الأمر يصعّب علينا عملنا». قطعنا ردهة كان فيها العديد من المسنّين وقد تحلّقوا يثرثرون في جماعات صغيرة. كانوا يسكتون كلّما مررنا بجانبهم، وخلفنا كانت الأحاديث تتواصل. كان الأمر أشبه بلغط ببغاوات خافت. وعند باب بناية صغيرة تركني المدير قائلاً: «سأتركك الآن، يا سيّد مورسو. متى احتجتني تجدني في مكتبي. مبدئياً، حدّدنا موعد الدّفن عند العاشرة صباحاً. وفكّرنا في أنّ هذا سيسمح لك بالسهر لوداع الفقيدة. مسألة أخيرة: على ما يبدو، فإنّ والدتك، قد أسرّت غير ما مرّة لرفاقها برغبتها في أن تدفن

بحسب الطقوس الدينية. وقد تكلّفت بالقيام بما يجب. غير أنّي رغبتُ في إعلامك بالأمر». شكرتُه. [أمّا] أمّي، فدون أن تكون ملحدة، ما خطر الدين ببالها يوماً.

دخلتُ. كانت غرفةً شديدةَ الإضاءة، مبيّضة بالجبس ومسقوفة بظُلّة من زجاج. تؤثثها مقاعد وحمّالات على شكل ×. ومقعدان منها كانا في مركز الغرفة، يسندان تابوتاً غطاؤه مقفلٌ. وما كان يُرى غير براغيَ برّاقة، بالكاد تمّ غرزها، وبدأت تنفلت من ألواح خشب الجوز المتداعية. وقرب التابوت كانت ثمّة ممرضة عربية ترتدي سترة بيضاء وتضع على رأسها وشاحاً ألوانه ساطعة.

إذّاك، دخل البوّابُ من خلف ظهري. لا شكّ أنّه جاء ركضاً. وقال بشيء من التّمتمة: «لقد غطّيناها، بيد أنّه يتوجب عليّ فكّ براغي التابوت حتّى تتمكنّ من رؤيتها». وهمّ بالتابوت حين استوقفته. قال لي: «ألا ترغب في رؤيتها؟» أجبته: «كلاّ». توقّف، وانزعجتُ إذ شعرت أنّه ما كان ينبغي أن أقول ذلك. تأملّني لبرهة، ثمّ سألني: «لمَ؟» لكن دون أن ينطويَ سؤاله على عتاب، وكأنّما هو يستفسر لا غير. قلتُ: «لستُ أدري». عندئذ، قال فاتلاً شاربه من دون أن ينظر إليّ: «إنّي أتفهّم الأمر». كانت عيناه جميلتين؛ عينان زرقاوان زرقة صافيةً، وبشرته مائلة إلى الحمرة. أعطاني كرسياً، وجلس هو

أيضاً أبعد قليلاً خلفي. قامت الممرضةُ وقصدتِ الباب. إذّاك قال لي البواب: «إنّ بها قرحة» ولأنّي لم أفهم شيئاً، نظرتُ إلى الممرضة ورأيت أنّها تضع أسفل عينيها لثاماً يحوط رأسها. كان اللثام يبلغ حدّ ارتفاع أنفها. وما كان يُرى من وجهها غير بياض اللّثام.

عندما انصرفتْ تكلّم البوّاب قائلاً: «سأدعك وحدك». لستُ أدري ما الإشارة التي ندّت عنّي، بيد أنه ظلّ هناك، واقفاً خلفي. وكان ذاك الحضور خلف ظهري يزعجني. كانت الغرفة مفعمة بنور جميل من أشعة نهاية ما بعد الظهيرة. وعلى زجاج الظلّة كان ثمة دبوران يطنّان. وبدأت أشعر بدبيب النّوم يجتاحني. قلتُ للبوّاب دون أن ألتفت نحوه: «أمَضى عليك الكثير من الزمن هنا؟» فأجابني فوراً: «خمسة أعوام»، وكأنّي به لطالما انتظر سؤالي هذا.

بعد ذلك ثرثر كثيراً. قال إنّه كان ليدهش لو قيل له إنّ المطاف سينتهي به بوّاباً بمأوى المسنين في مرنغو. كان له من السنين أربع وستون وكان باريسياً. عند هذه اللحظة قاطعته: «آه، أنت لست من هنا؟» ثمّ تذكّرت أنّه بينما كان يقودني إلى المدير، كان قد حدثّني عن أمّي. كان قد قال إنّه ينبغي التعجيل بدفنها، لأنّ طقس السّهل حارّ، خاصة بهذا البلد. وتلك هي اللّحظة التي كان قد أخبرني فيها أنّه عاش بباريس وأنّ نسيان

الأمر يشقّ عليه. في باريس نظلُّ برفقة الميّت ثلاثة أيام، وأحياناً أربعة. أمّا هنا، فلا وقت لدينا، ولم نستوعب فكرة أنّ ما إن يموت الإنسان حتى يكون الوقت قد حان لتشييعه. عندئذ قالت له زوجته: «كفى، لا يصح حكي مثل هذه الأشياء للسيّد». اِحمرّ الشيخ واعتذر. فتدخّلتُ قائلاً: «بلى. بلى.» إنّي لأجد ما يحكيه صحيحاً وجديراً بالاهتمام.

أخبرني، ونحن في غرفة حفظ الموتى الصغيرة، أنّه قدِم المأوى بصفته معوزاً محتاجاً. وإذ آنس في نفسه الكفاءة، اقترح نفسه لشغل منصب البوّاب. نبهته إلى أنّه، في نهاية المطاف، كان أيضاً نزيلاً هنا، فأجابني نافياً. وقد صدمتني طريقته في قول: «هم»، و«الآخرون»، وبشكل أقل: «المسنّون»، كلّما تحدّث عن النزلاء، الذين كان بعضهم أصغر سنّاً منه. لكن، من البيّن بنفسه أنّ الوضعيتين ليستا سواء. فهو كان البوّاب، وبمعنى من المعاني، كانت له سلطة عليهم.

دخلت الممرضة في تلك اللّحظة. وكان المساء قد حلّ بغتة، فسرعان ما صار اللّيل حالكاً فوق الظُّلّة. أدار البواب مفتاح النور، وأعماني دفق الضوء المباغت. دعاني إلى حجرة الطعام لأتعشى. بيد أنّي ما كنتُ جائعاً. فعرضَ عليّ حينها فنجان قهوة بالحليب. وبما أنّي كنت أحبّ القهوة بالحليب، قبلت عرضه. وعاد بعد برهة حاملاً صينية. شربت القهوة. وإذّاك استبدّت بيّ

الرغبة في التدخين. لكنّي تردّدت، إذ لم أدرِ ما إن كان يصحّ أن أدخّن أمام أمّي. فكّرت في الأمر فبدا لي غير ذي شأن. قدّمت حينئذ سيجارة للبوّاب، ودخّنا معاً.

وبعد برهة، قال لي: «أوَ تعلمُ. إنّ أصدقاء السيّدة والدتك سيأتون هم أيضاً للسهر جنب جثمانها اللّيلة. إنها العادات. عليّ الذهاب لجلب الكراسي والقهوة السوداء». سألته إن كان بالإمكان إطفاء أحد المصابيح، ذاك أنّ النور المنعكس على الجدران البيضاء يشعرني بالتعب. فقال لي إنّ الأمر غير ممكن. فالدّارة قد ركبت بهذا النّحو: فإمّا أن تضيء المصابيح جميعها، أو لا يضيء أي مصباح. لم أُعره [بعد ذلك] الكثير من الاهتمام. لقد خرج، ثمّ عاد، وبدأ يرصف الكراسي. وعلى أحدها رصّ فناجين حول إبريق قهوة. ثمّ جلس قبالتي من الجهة الأخرى لجثمان أمي. كانت ثمّة الممرضة أيضاً، في أقصى المكان، مولية ظهرها. لم أكن أرى ما تفعله، بيد أنّي بملاحظة حركة ذراعيها قد أخمّن أنها كانت تحوك. كان الجوّ لطيفاً، وأدفأتني القهوة. وعبر الباب المفتوح كانت تتسلّل رائحةٌ: مزيجٌ من اللّيل والزهور. وأخالُني غفوتُ قليلاً.

كان احتكاك مّا هو ما أيقظني. ولأني كنت قد أغمضت عينيّ، بدا لي بياض الغرفة أشدّ وهجاً. ما كان ثمّة من ظلّ أمام ناظريَّ. وكلّ شيء، كلّ زاوية، وكلّ انحناءة، كانت ترتسم

بصفاء جارح للعين. وكانت تلك اللّحظة التي دخل فيها أصدقاء أمّي. كانوا دزينة في المحصّلة، وظلوا ينزلقون بصمت وسط هذا النّور الذي يعمي الأبصار. وجلسوا دون أن يَصرَّ أيّ كرسيّ. كنت أراهم كما لم أرَ شخصاً من قبل، ولا تفصيل واحد من تفاصيل وجوههم أو ملابسهم كان ليُفلت من نظرتي. ورغم ذلك ما كنت أسمعهم، وكان يشقّ عليّ الإيمان بحقيقة وجودهم. كلّ النّساء، تقريباً، كنّ يرتدين مئزراً، وينتطِقن بحزام يشددنه عند خصورهن، فتزداد بطونهن بروزاً. وقبلئذ، لم ألاحظ قطّ إلى أيّ حدّ يمكن أن تكون بطون العجائز بارزة. أمّا الرّجال فكادوا يكونون جميعهم ناحلي الجسد، وكانوا يحملون عكاكيز. وأكثر ما أثارني في وجوههم، أنّي ما كنت أرى عيونهم، وإنّما كنت أرى فقط نوراً خبا بريقه خلَلَ عشّ من التجاعيد. ولمّا جلسوا حدجني أغلبهم بنظراته ثمّ بمشقّة هزّوا رؤوسهم، وحرّكوا شفاههم التي أكلتها أفواههم الدّرداء، دون أن أستطيع التمييز بين ما إذا كانوا يحيّونني أم أنّ الأمر لا يعدو عرّة[1] يعانون منها. أظن بالأحرى، أنّهم كانوا يحيّونني. وحينئذ فقط انتبهت إلى أنهم كانوا يجلسون جميعهم، حول البوّاب، قبالتي هازين رؤوسهم. ولبرهة تلبّسني إحساس أبله بأنّهم أتوا هنا لمحاكمتي.

---

(١) تشنج عضلي يصيب الوجه.

بعد فترة قصيرة، أجهشت امرأة بالبكاء. كانت تجلس في الصفّ الثاني، تحجبها إحدى رفيقاتها، لذا لم أكن أراها بشكل واضح. كانت تبكي مصدرة أنّات خافتة، لكن متواصلة. خلتها لن تتوقّف البتّة. أمّا الآخرون فقد بدوا كما لو أنّهم لا يسمعونها. كانوا مترهّلين وكئيبين وصامتين. كانوا ينظرون إلى التابوت أو إلى عكازاتهم أو إلى أيّ شيء آخر، بيد أنهم ما كانوا يحيدون ببصرهم عمّا ينظرون إليه. وكانت المرأة ما تزال تبكي. ودهشتُ لأنّي ما كنت أعرفها. وددت أن لا أسمعها بعدُ. ورغم ذلك لم أجرؤ على أن أعبّر لها عن رغبتي. مال عليها البوّاب، وكلّمها، لكنّها هزّت رأسها وتمتمت بشيء مّا، واستمرّت تبكي بالوتيرة نفسها. عندئذ جاء البوّاب ناحيتي. وجلس بقربي. وبعد برهة غير يسيرة، أخبرني دون أن يلتفت شطري: «لقد كانت متعلّقة بوالدتك أشدّ التعلّق. تقول إنّ والدتك كانت صديقتها الوحيدة هنا، والآن ما عاد لها أحدٌ».

ظللنا لفترة طويلة على تلك الحال. وقد بدأ أنين المرأة وتنهدها يخفّان. كانت تشخر كثيراً. ثمّ صمتت في نهاية المطاف. ما كنت أشعر بعدُ بالنعاس، بيد أنّي كنت تعباً وكانت كليتاي تؤلمانني. وما أصبح يُثقل عليّ الآن هو صمت كلّ هؤلاء النّاس. من حين لآخر، فقط، كنت أسمع صوتاً فريداً، لم أدرِ كنهه. وبعد فترة طويلة، انتهيت إلى أن أحزر أنّ بعضاً من المسنين كان

يمصّون باطن خدودهم ويطلقون هذه الطقطقات الغريبة. ولفرط ما كانت تستغرقهم أفكارهم، ما كانوا ينتبهون إلى الأمر. حتّى أنّي تملكني الانطباع بأنّ هذه الميّتة، المسجّاة وسطهم، ما كانت تعني لهم شيئاً. لكنّي أعتقد الآن أنّه كان انطباعاً خاطئاً.

تناولنا جميعاً قهوة قدّمها لنا البوّاب. بعد ذلك، لست أذكر شيئاً. فقد مرّ اللّيل. أذكر أنّي، في لحظة مّا، فتحت عينيّ ورأيت أنّ المسنّين كانوا نائمين مكوّمين بعضهم فوق بعض، باستثناء واحد فقط، كان واضعاً ذقنه على ظاهر يديه المتشبثتين بعكازه، ينظرُ إليّ وكأنّه ما كان ينتظر إلا استيقاظي. ثمّ غفوت مجدّداً. واستيقظت إذ ازداد إحساسي بألم الكلى اطراداً. كان النهار قد بدأ يزحف فوق الظّلة. بعد ذلك استيقظ أحد المسنين وسعل كثيراً. كان يبصق في منديل كبير ذي مربّعات، وكلّما بصق كان كأنّما ينتزع روحه. أيقظ سعالُه الآخرين، وقال البوّاب بأنّ عليه الانصراف، فقاموا. وكان هذا السهر غير المريح قد ألبسهم وجوهَ موتى. وإذ همّوا بالخروج، وأمام عظيم دهشتي، شدّوا جميعهم على يديّ ـ وكأنّما هذه اللّيلة التي لم نتبادل فيها ولا كلمة واحدة قد قوّت أواصر الحميمية بيننا.

كنت متعباً. فقادني البوّاب إلى بيته، وهناك اعتنيت شيئاً مّا بهيئتي. تناولت المزيد من القهوة بالحليب، وكانت طيّبة جداً. وحين خرجتُ كان النهار قد طلع تماماً. وفوق التلال التي تفصل

مرنغو عن البحر كانت السماء مضمّخة بالحمرة. وكانت الريح التي تعبر فوق تلك التلال تحمل إليّ رائحة الملح. كان يوماً جميلاً يلوح في الأفق. وكان قد مرّ وقت طويل على زيارتي للبادية، واستشعرت مدى المتعة التي كنت لأحسّها في التنزّه لو لم تكن ثمّة أمي.

بيد أنّي انتظرت في الساحة، أسفل شجرة دلب. تنسّمتُ رائحة الأرض النديّة وما عادت بي حاجة للنوم. خطر ببالي رفاقُ المكتب، ففي هذه الساعة يستيقظون ليقصدوا العمل: وبالنسبة لي، كانت تلك دوماً أشقّ السّاعات. فكرت قليلاً بعدُ في تلك الأشياء، غير أنّ بالي تشوّش بجرس كان يرنّ في داخل المبنى. وكانت ثمّة ضجّة خلف النوافذ، ثم ما لبث كلّ شيء أن صمت. تقدّم ارتفاع الشمس قليلاً في السماء: إذ بدأت تدفئ قدميّ. عبَر البوّابُ السّاحةَ وأخبرني أنّ المدير يطلبني. ذهبت إلى مكتبه. [وهناك] جعلني أوقّع بعض الأوراق. ولاحظت أنّه ارتدى ملابس سوداء بسروال مخطّط. أخذ الهاتف بيده وقال لي: «إنّ عمّال الدّفن قد وصلوا منذ مدّة. سأطلب منهم أن يأتوا لإقفال التابوت. هل تريد قبل ذلك، أن تلقي نظرة أخيرة على والدتك؟». أجبته: «كلاّ». فأمر في الهاتف، بصوت خفيض: «فيجياك، قل للرجال إنّ بوسعهم إتمام عملهم».

بعدئذ أخبرني أنّه سيحضر الدّفن، فشكرته. وجلس خلف

مكتبه مشبكاً ساقيه الصغيرتين. ونبّهني إلى أنّنا ساعة الدّفن سنكون وحدنا رفقة ممرضة المأوى. فالمبدأ يقتضي ألاّ يحضر الدّفنَ نزلاءُ المأوى. إذ لا يُسمح لهم بأكثر من قضاء اللّيلة الأخيرة رفقة الفقيد: «إنّها مسألة شعور إنساني»، أضاف. بيد أنّه سمح استثناءً لأحد أصدقاء أمّي بتشييع جنازتها؛ يتعلّق الأمر بـ: «توما بريز»، وهنا ندت عن المدير ابتسامة. وقال لي: «أو تعلم؟ لعلّه شعور صبياني. بيد أنّه وأمّك ما كانا يفترقان البتّة. وفي المأوى، كنّا نمازحهما، فنقول لبريز: «إنّها خطيبتك». وكان هو يضحك. كان هذا الأمر يروقهما. ولأنّ موت السيدة مورسو قد آلمه كثيراً ما كان بوسعي رفض طلبه. بيد أنّي، وبنصيحة من الطبيب الزائر، لم أسمح له أن يسهر بجانبها أمس».

ظللنا صامتيْن فترة ليست بالقصيرة. ثم قام المدير ونظر عبر نافذة مكتبه. وبعد برهة لاحظ: «هو ذا خوري مرنغو. لقد وصل قبل موعده». ونبّهني إلى أنّه يلزم ما لا يقلّ عن ثلاثة أرباع الساعة مشياً على الأقدام لبلوغ الكنيسة الموجودة في البلدة نفسها. نزلنا. وأمام المبنى، كان هناك الخوري وفَتَيان من فتية الكورس. أحد الفَتَيَيْن كان يمسك مبخرة وكان القسّ ينحني عليه حتّى يعدّل من طول السلسلة الفضية. وحين وصلنا، قام القسّ. ناداني «يا بنيّ» وقال لي بعض الكلمات. ثمّ دخل، وتبعته.

لمحتُ بنظرة واحدة أنّ التابوت كان قد دُقّ، وأنّه كان في

الغرفة أربعة رجال سود. وسمعت المدير، في الآن ذاته، يقول لي إنّ السيارة تنتظر عند الطريق، وبدأ القسّ يتلو صلواته. ومنذ تلك اللحظة تسارعت الأمور جميعها. فقد سارع الرجال إلى التابوت حاملين ملاءة. وخرجنا، أنا والمدير والقسّ وتابعاه. وأمام الباب كانت ثمّة امرأة لا أعرفها. قدّمني المدير إليها قائلاً: «السيّد مورسو». ولم أسمع اسم المرأة، غير أني فهمت فقط أنّها ممرضة منتدبة. وقد هزّت وجهها الطويل ذا العظام البارزة دون أن تبتسم. ثمّ انتظمنا لنفسح المجال أمام خروج الجثمان. تبعْنا حاملي النعش وغادرنا المأوى. أمام الباب كانت ثمة عربة. مدهونةً ومستطيلةً ولمّاعةً، بدت لي العربةُ أشبه بمقلمة. وبجانبها كان يقف منظّم المأتم، وهو رجل قصير يرتدي ملابس مضحكة؛ ورجلٌ مرتبك الهيئة، فهمت أنّه السيّد بريز. كان يعتمر لِبدة مهلهلة مستديرة الطاقية وعريضة الحواشي (وقد خلعها حين جاوز النعشُ الباب)، ويرتدي بذلة يشدّ سروالها على حذائه، وشريطاً معقوداً من القماش صغيراً جداً قياساً على قميصه ذي الياقة البيضاء الكبيرة. كانت شفتاه ترتجفان تحت أنف تملؤه البقع السوداء. وشعره الأبيض الناعم نعومة لا بأس بها، يكشف عن أذنين متدلّيتين ومشكّلتين تشكيلاً سيئاً؛ أذنان أثارني تباين حمرتهما الدمويّة مع الوجه الشاحب. وعيّن لنا منظمُ المأتم مواقعنا. كان الخوري يسير في المقدمة متبوعاً بالعربة، وحول

العربة الرجال الأربعة، وفي الخلف المدير وأنا، وفي ذيل الموكب الممرضةُ المنتدبة والسيد بريز.

كانت الشمس قد ملأت السماء وبدأت تثقل على الأرض، وأخذت الحرارة ترتفع بوتيرة سريعة. لم أدرِ لِمَ انتظرنا كلّ تلك المدة حتّى نبدأ المسير. كنت أشعر بالحرّ تحت ملابسي الغامقة. أمّا الشيخ القصير، الذي كان قد غطى رأسه، فقد أعاد خلع قبعته. وكنت قد استدرت قليلاً شطره، وأخذت أنظر إليه، حين حدّثني المدير عنه. أخبرني أنّ أمي كانت كثيراً ما تذهب مساءً للتنزه حتّى القرية، هي والسيّد بريز، ترافقهما ممرضةٌ. وإذ نظرتُ إلى صفوف السّرو التي تفضي إلى التلال القريبة من السماء، وهذه الأرض المحمرّة والمخضرّة، وهذه المنازل القليلة والجميلة الهندسة، تفهّمت أمّي. فلعلّ المساء في هذا البلد أشبه ما يكون بهدنة حزينة[١]. أمّا اليوم، فإنّ الشمس الفائضة عن الحدّ، التي تهزّ أركان المنظر، تجعله لا إنسانياً ومحرّضا على الكآبة.

بدأنا المسير. وفي تلك اللّحظة فقط، لاحظت أنّ السيد بريز كان يعرج عرجاً خفيفاً. وكانت السيّارة تزيد من سرعتها شيئاً

---

(١) هدنة ميلونكولية في الأصل، وهي ضرب من الحزن النبيل، أي «السعادة التي يحسها المرء في حزنه» كما يقول فيكتور هوجو.

فشيئاً، فتزداد المسافة اتّساعاً بينها وبين الشّيخ. أحد الرجال الذين كانوا يحفّون العربة، تركها تفوته، وصار الآن يمشي في مستوى واحد معي. وأدهشتني السرعة التي كانت الشمس ترتفع بها في السماء؛ إذ انتبهت إلى أنّ الريف قد صار، منذ مدّة، يضجّ بطنين الحشرات وخشخشة العشب. أخذ العرق يسيل على وجنتيّ. وإذ لم أكن أعتمر قبّعة، أخذت أهوّي نفسي بمنديلي. عندئذ قال لي متعهّد الدفن شيئاً لم أسمعه. وفي الآن ذاته كان يمسح رأسه بمنديل يُمسكه بيُسراه، بينما يده اليمنى ترفع طرف قبّعته. سألته: «ماذا؟» فردّد مشيراً إلى السّماء: «إنّها تضربُ [بعنف]». أجبته: «أجل». وبعد ذلك بقليل سألني: «هل التي هنا أمّك؟» أجبته مرّة أخرى: «أجل». «هل كانت مسنّةً؟» أجبته «شيئاً مّا»، لأنّي ما كنت أعرف سنّها بالضبط. بعد ذلك صمتَ. اِستدرت فرأيت أنّ السيّد بريز قد صار على بعد ما يقارب الخمسين متراً منّا. وكان يحث خطاه مُؤرجحاً لبدته عند طرف ذراعه. نظرت أيضاً إلى المدير، كان يمشي بوقار كبير، دون أيّ حركة زائدة عن الحاجة. وكانت بعض قطرات عرق تتلألأ فوق جبينه، بيد أنّه لم يمسحها.

خيّل إليّ أنّ الموكب كان يمشي بوتيرة سريعة بعض الشيء. وحولي كان المنظر نفسه: الريف المضاء الذي تغمره الشمس، وكان وهجها لا يطاق. وفي لحظة معيّنة مررنا على جانب من

الطريق التي تمّ إصلاحها حديثاً. وكانت حرارة الشمس قد شقّقت الإسفلت. فكانت الأقدام تغوص فيه، وتترك باطنه اللامع مفتوحاً. وفوق العربة، كانت قبعة الحوذي، المصنوعة من الجلد المدبوغ، تبدو كأنمّا نُقعت في ذاك الوحل الأسود. وكنت شيئاً مّا تائهاً ما بين السماء الزرقاء والبيضاء، ورتابة هذه الألوان السوداء؛ سوادُ الإسفلت المفتوحِ الدبقُ، سواد الملابس الباهت، سواد العربة البرّاق. وكلّ تلك الأشياء: الشمس، رائحة الجلد والروث المنبعثة من العربة، رائحة الطلاء ورائحة البخور، تعب ليلة بيضاء؛ كلّ تلك الأشياء كانت تشوّش على نظري وأفكاري. اِلتفتُّ مجدّداً: فبدا لي بريز بعيداً جداً، ضائعاً وسط سحابة حرّ، ثمّ ما عدت أراه. بحثت عنه بنظري، فلاحظت أنه قد ترك الطريق واخترق الحقول. انتبهت كذلك إلى أن الطريق أمامي كانت تلتفّ. فهمت أنّ بريز الذي كان عارفاً بالمكان، يختصر الطريق ليلحق بنا. وقد لحقَنا عند المنعطف. ثمّ أضعناه من جديد. ثمّ عاد ليخترق طريقه عبر الحقول، واستمرّ على هذه الحال مرّات عديدة. أمّا أنا فقد كنت أحسّ الدّم سينزّ من صدغيّ.

كلّ ما حدث بعد ذلك، جرى بقدر من العجلة واليقين، وبشكل طبيعي؛ حتّى أنّي لا أذكر منه شيئاً. أذكر شيئاً واحداً فقط: عند مدخل البلدة، كلّمتني الممرضة المنتدبة. كانت تملك

صوتاً فريداً، صوتاً لا ينسجم مع وجهها، صوتاً مُنغّماً ومُرجّفاً. قالت لي: «إذا ما سرنا على مهل قد تصيبنا ضربة شمس؛ أمّا إذا ما مشينا رُويداً فإنّنا نتعرّق وفي الكنيسة نصير عرضة لنزلة حرّ وبرد». كانت مُحقّة، فما من مخرج من هذا المأزق. وما زلت أحتفظ ببعض الصور الذهنية عن ذلك اليوم، مثلاً: وجه بريز حين لحقنا، آخر مرّة، عند مدخل البلدة. كانت ثمّة دموع كبيرة، دموعُ توتّرٍ وحزن، تنهمر على خدّيه. بيد أنّها ما كانت تسيل، بسبب التجاعيد التي كانت تحبسها. كانت تنفسح، ثمّ تتلاقى لتكوّن طبقة برّاقة من الماء فوق وجهه المتهدّم. كان ثمّة أيضاً الكنيسة والقرويون على الأرصفة، وزهور الغرنوق الحمراء فوق لحود المقبرة، وإغماءة بريز (كان أشبه بدمية تخلّعت)، والتراب الدموي اللّون الذي أهيل فوق تابوت أمّي، ونسيج الجذور الأبيض الذي اختلط به، ثمّ المزيد من النّاس، والأصوات، والقرية، والانتظار أمام المقهى، وأزيز المحرّك المتواصل، وبهجتي إذ دخل الباص إلى عشّ أضواء مدينة الجزائر، ففكّرتُ أنّي سأذهب للاستلقاء في فراشي وأنام اثنتي عشرة ساعةً.

٢

عندما استيقظتُ صباحاً فهمت لمَ بدا رئيسي غير مسرور حين طلبت إجازة يومين: فاليوم يوم سبت. وكنت، إن جاز القول، قد نسيت ذلك، لكن ساعة استيقظت خطرت لي الفكرة. فقد فكّر رئيسي، بشكل طبيعي، في أنّي سأحصل هكذا، على إجازة أربعة أيام، مع يوم أحدي، وهو أمر ما كان ليسرّه. لكن، من جهة، ما كانت تلك غلطتي إذا ما دُفنت أمي أمس بدل أن تدفن اليوم، ومن جهة أخرى كنت سأحصل على إجازة السبت والأحد، في كلّ الأحوال. على أنّ ذلك لا يمنعني بالطبع من تفهّم موقف رئيسي.

وجدت مشقّة في النهوض، إذ كنت متعباً من النهار الذي قضيته أمس. وبينما كنت أحلق ذقني فكّرتُ في ما أنا فاعلٌ اليوم، فقرّرتُ الذهاب للسباحة. ركبت الترام لأذهب إلى مؤسسة مسابح الميناء. وهناك غطست في المضيق. كان ثمة الكثير من الشباب. وفي الماء التقيت ماري كاردونا، وقد كانت تشتغل من قبل على الآلة الكاتبة في المكتب نفسه حيث أعمل، وكنت

أرغب فيها وقتئذ. وأخالها أيضاً كانت ترغب فيّ. بيد أنها رحلت بعد ذلك بفترة قصيرة، وما مُنحنا وقتاً. أعنتها على اعتلاء طوّافة، وبتلك الحركة، لامست نهديها. وكنت ما أزال في الماء حين كانت قد استلقت على بطنها فوق الطوّافة. اِستدارت نحوي. كان شعرها يغشى عينيها، وكانت تضحك. صعدت بجانبها على الطوّافة. كان الجو جميلاً، وبشيء من المزاح، أرخيت رأسي إلى الوراء ووضعته على بطنها. لم تعترض، وبقيتُ على تلك الحال. كانت السماء كلّها مشرعة أمام نظري، زرقاء مذهبة. وأسفل رقبتي كنت أحس بطن ماري ينبض برفق. بقينا مدة طويلة فوق الطوّافة، نصف غافييْن. وعندما اشتدّت حرارة الشمس، غطسَت في الماء، فتبعتها. أمسكت بها، وطوّقتُ خصرها بذراعي، وسبحنا معاً. وظلّت تضحك. وعلى رصيف الميناء، بينما، كنا نجفّف جسمَيْنا، قالت لي: «بشرتي مُلوّحة أكثر من بشرتك». سألتها إن كانت ترغب في مرافقتي إلى السينما، مساءً. فضحكت وأخبرتني أنها كانت ترغب في مشاهدة أحد أفلام فرنانديل. وإذ ارتدينا ملابسنا أبدت دهشتها وهي تراني أضع ربطة عنق سوداء، وسألتني إذا ما كنت على حداد. أخبرتها أنّ أمّي توفيت، وإذ أرادت معرفة متّى توفيت أمّي، أجبتها: «أمس». ندّت عنها انكفاءة بسيطة، لكن دون أن تبدي أيّ ملاحظة. وددتُ أن أقول لها إنّها ليست غلطتي، لكنّي تراجعت،

إذ تذكّرتُ إنّي سبق أن قلت ذلك لرئيسي. ولا معنى لذلك. وفي نهاية المطاف، نتحمّل دائماً قدراً من المسؤولية عن الخطأ.

مساءً، كانت ماري قد نسيت كلّ شيء. كان الفيلم طريفاً في بعض لحظاته، وفي الآن نفسه شديد البلادة. كانت تضع ساقها لصق ساقي. داعبت نهديها. وقبيل نهاية العرض، قبّلتها، إنّما بشكل سيّئ. وبعد خروجنا، رافقتني إلى المنزل.

حين استيقظتُ، كانت ماري قد رحلت. وكانت قد شرحت لي أنّها ينبغي أن تذهب عند عمّتها. فكّرت في أنّ اليوم يوم أحد، فانتابني إحساس بالملل: لا أحبّ يوم الأحد. عدت، إذاً، إلى فراشي، وبحثت على المخدة عن رائحة الملح التي خلّفها شعر ماري، ونمت حتّى الساعة العاشرة. دخّنت بعد ذلك بعض السجائر، وأنا ما أزال مستلقياً في فراشي، حتّى منتصف اليوم. وما كنت راغباً في تناول الإفطار عند سليست، على غرار ما درجت عليه، فلا ريب في أنّهم هناك كانوا ليطرحوا عليّ أسئلة، ولا أحب ذلك. قليْتُ بيضات وأكلتها في المقلاة، ودون خبز، لأنه لم يبق لديّ خبز، ولم أرغب في النزول لشرائه.

بعد الغذاء، شعرت بالضجر وذرعت شقتّي على غير هدى. حين كانت أمّي ما تزال تعيش هنا، كانت الشقّة مناسبة لنا. أمّا الآن فقد صارت واسعة جداً بالنسبة لي، وقد نقلتُ طاولة الطعام

إلى غرفتي. ما عدت أعيش سوى في هذه الغرفة، بين كراسي القشّ التي تحفّرت قليلاً، والدولاب المصفرّة مرآته، ومنضدة الزينة والسرير النُّحاسي. أمّا ما عدا ذلك فقد كان هملاً. بعد ذلك بقليل، حتّى أشغل نفسي بشيء مّا، أخذت جريدة قديمة وتصفّحتها. قصصت منها إعلاناً عن أملاح كروشن[١]، وألصقتها في دفتر قديم، كنت أضع فيه كلّ الأشياء التي أجدها طريفة في الجرائد. ثمّ غسلتُ يديّ. وفي الأخير وقفت في الشرفة.

تطلّ غرفتي على شارع الضاحية الرئيسي. كان طقس بعد الظهيرة جميلاً. ومع ذلك كان بلاط الشارع دبقاً، وكان المارة معدودين، ومازالوا يحثّون خطاهم. مرّت في البداية الأُسر التي كانت تنشد النزهة، ثمّ ولدان صغيران يلبسان بذلتي بحّارين وقد تدلّى سروالاهما إلى ما تحت الرّكبة، وكان يبدو أنّ ملابسهما الخشنة تضايقهما، وفتاة صغيرة تشدّ شعرها بشريط ورديّ عريض وتنتعل حذاء أسود مبرنقاً. وخلفهم أمّ ضخمة الجسم، ترتدي فستان حريرٍ رمادياً. أمّا الأب فكان رجلاً قصيراً وضامر

---

(١) أملاح كروشن Les sels Kruschen، منتوج بريطاني ذاع صيته في فرنسا في ثلاثينيات القرن الماضي، بسبب إعلاناته التي كانت تبدو طريفة وغريبة. والمثير أنّ المنتوج قد وجد لنفسه مكاناً في سجل الأدب، وتحديداً في رواية كامو هذه، وفي عمل الكاتبة البريطانيـة دوروتي سايرز Dorothy L. Sayers المعنون بـ Clouds of Witness.

الجسم، وكنت أعرفه رأيَ العين. كان يعتمر طاقية قشّ، ويضع ربطة عنق على شكل فراشة، ويحمل بيده قصبة صيد. وإذ رأيت زوجته عرفت لماذا يقول أهل الحيّ إنّه رجلٌ بارز. وبعد ذلك بقليل مرّ شباب الضاحية، بشعورهم اللّماعة وربطات عنقهم الحمراء، وستراتهم المشدودة شداً، ومناديل جيوبهم المطرّزة وأحذيتهم المربّعة الرأس. خمّنت أنّهم ذاهبون إلى قاعات السينما وسط المدينة. ولهذا السبب كانوا ينصرفون باكراً حاثين خطاهم نحو الترام، وهم يضحكون بأعلى أصواتهم.

وإذ مرّوا، صار الشارع، شيئاً فشيئاً، قفراً. كانت العروض قد بدأت في كلّ مكان، على ما أعتقد. فلم يعد بالشارع غير أصحاب الدكاكين والقطط. وكانت السماء صافية لكن لا شعاع فوق أشجار التّين التي تحفّ الطريق. وعلى الرصيف المقابل، كان بائع السجائر قد أخرج كرسياً ووضعه أمام باب بيته ثمّ اقتعده واضعاً ذراعيه على مسنده. وتلك الترامات التي كانت مكتظّة قبل قليل، صارت [الآن] شبه فارغة. وفي المقهى الصغير المسمّى: «عند بييرو Chez Pierrot»، جنب بائع التبغ، كان النادل يكنس النشارة في القاعة الخالية. حقاً، إنّه يوم الأحد.

أدرتُ كرسيّ وجعلت وضعه كما هو كرسيّ بائع التبغ، لأنّي قدّرت أنّه وضع مريح أكثر. دخّنت سيجارتين، ثمّ دخلت

لآخذ قطعة شوكولا وعدتُ لآكلها عند النافذة. بعد ذلك بمدّة قصيرة اكفهّرت السماء، فخِلت أنّا سنشهد عاصفة صيفية. غير أنّها انقشعت رويداً رويدا. على أنّ مرور السّحب ترك على الشوارع ما يشبه وعداً بالمطر، ممّا جعلها أكثر سواداً. وبقيت أتملّى السّماء طويلاً.

عند الخامسة وصلت الترامات محدثة ضجيجاً. كانت تُعيد من ملعب الضاحية زرافات من المشجّعين الجاثمين على السلالم والدرابزين. وأوصل الترام الموالي اللاعبين، الذين عرفتهم من حقائبهم الصغيرة. كانوا يصيحون ويصدحون بأعلى أصواتهم، مردّدين أنّ ناديهم لن يموت. والكثير منهم أومؤوا إليّ بإشارات. حتى إنّ أحدهم صاح فيّ: «لقد هزمناهم» وقلت: «نعم» بهزّة من رأسي. ومنذ تلك اللحظة بدأت السيارات تتدفّق.

ومرّة أخرى انقلب النّهار قليلاً. وفوق الأسطح صارت الشمس محمرّة، وإذ بدأ المساء يهبط، بدأت الشوارع تشهد حركةً. وكان المتنزهون يعودون رويداً رويداً. واستطعت أن أميّز بينهم الرجّل البارز. كان الأطفال يبكون أو ينساقون لذويهم. وعلى الفور، تقريباً، غمرت قاعاتُ السينما الشوارعَ بطوفان من المشاهدين. وبين المشاهدين كان شباب تندّ عنهم حركات أكثر حزماً من المعتاد، وخمّنت أنهم قد شاهدوا فيلم مغامرات. أمّا أولئك الذين عادوا من سينمات المدينة فقد وصلوا فيما بعد.

وكانوا يبدون أكثر جدية. وقد كانوا ما يزالون يضحكون، غير أنّهم بين الفينة والأخرى يبدون متعبين وحالمين. ظلّوا في الشارع، يتمشون ذهاباً وإياباً، على الرصيف المقابل. وكانت فتيات الحيّ، الكاشفات شعورهن، يتأبطن أذرع بعضهن. وكان الشّبان يتقصّدون اعتراضهن، ويلقون إليهن بدعابات، يضحكن منها وهنّ يدرن رؤوسهن. والكثيرات منهن، ممن كنت أعرف، أومأن إليّ بإشارات.

ثمّ اشتعلت مصابيح الشارع فجأة، فبدت باهتةً أولى النجوم الصاعدة مع الليل. وأحسست أنّ عينيّ بدأتا تتعبان من متابعة الأرصفة بما تحمله من أناس وأضواء. كانت الأرضية المبلّطة تلمع بنور المصابيح، وكانت الترامات ذات الرحلات المنتظمة تسلّط أضواءها على شعور لامعة، أو ابتسامة، أو سوار فضيّ. بعد ذلك بقليل، إذ بدأت وتيرة الترامات تخفّ وصار الليل حالكاً فوق الأشجار والمصابيح، خلا الشارع تدريجياً، إلى أن عبرت أولى القطط بهدوء الشارعَ، الذي عاد قفراً من جديد. عندئذ فكّرت أنّ الوقت قد حان لتناول العشاء. وقد آلمتني رقبتي بعض الشيء، بسبب جلوسي طويلاً مستنداً إلى مسند الكرسي. نزلت من شقتي لأشتري خبزاً وعجائن، ثمّ عدت وأعددت عشائي، وأكلته واقفاً. رغبت في تدخين سيجارة عند النافذة، بيد أنّ حرارة الجوّ كانت قد انخفضت، وشعرت بالبرد قليلاً. أقفلت

النوافذ، وعند عودتي لمحت في المرآة طرفاً من الطاولة، حيث كان مصباح الغاز موضوعاً جنباً إلى جنب مع قطع الخبز. وفكّرت في أنّه كان مجدّداً يوم أحد قد انصرم، وأنّ أمّي قد ووريت في الثرى، وأنّي سأستأنف عملي، وأنّ لا شيء، في المحصّلة، قد تغيّر.

٣

عملت اليوم كثيراً في المكتب. وقد كان الرئيس ودوداً. سألني إذا ما كنت متعباً، وأراد أيضاً أن يعرف سنّ أمّي. قلت له: «ما يناهز السّتين سنة»، حتّى لا أخطئ. ولست أدري لمَ بدا لي وكأنّما تخفّف من عبءٍ واعتبر أنّ الأمر قد طُوي.

كانت ثمّة كومة من إيصالات الشحن المتكدّسة فوق مكتبي، وكان ينبغي أن أتفحّصها كلّها. وقبل أن أغادر مكتبي لأتغذّى غسلت يديّ. كان ذلك عند الزوال، وكم أحبّ هذا الوقت! أمّا في المساء فأشعر بمتعة أقلّ، لأنّ المنشفة الملفوفة التي نتنشّف بها تكون قد صارت مبتلة تماماً: فقد تمّ استعمالها النهار كلّه. وكنت قد أشرت لرئيسي بذلك ذات يوم. فأخبرني أنّه يجدّ الأمر مؤسفاً، لكنّه في الآن نفسه تفصيل لا أهميّة له. وقد خرجت متأخراً بعض الشيء، نصف ساعة بعد منتصف النّهار، مع إمانويل الذي يشتغل في مصلحة الشّحن. يُطلُّ المكتب على البحر، وقد أمضينا برهة في متابعة بواخر الشحن عند رصيف الميناء الملتهب بحرارة الشمس. وعندئذ وصلت

شاحنة وسط قعقعة سلاسل وضجيج انفجارات. اِقترح إمانويل أن نذهب، فحثّثتُ خطاي. تجاوزتنا الشاحنة وانطلقنا في إثرها. وصرت غارقاً وسط الضجيج والغبار. وما عدتُ أميّز شيئاً، ولا أحسّ غير اندفاعي الأهوج في الركض، وسط رافعات وعتاد، وصوارٍ تتمايل في الأفق، وهياكل السُّفن التي كنّا نحاذيها. تسلقت أوّلاً، ووثبت في الحين، ثمّ أعنت إمانويل على الصعود. كنّا نلهث، فيما الشاحنة تدبّ فوق بلاط الرصيف غير المستوي، وسط الغبار وأشعة الشمس. وكان إمانويل يضحك بلا انقطاع.

وصلنا عند سليست نتصبّب عرقاً. وكان ما يزال هناك، ببطنه الكبيرة ومئزره وشاربه الأبيض. سألني عمّا «إذا كانت الأمور على ما يرام، برغم ما وقع». قلت له أجل، وإنّي جائع. تناولت طعامي بسرعة، وشربت قهوة. ثمّ عدت لبيتي، ونمت قليلاً، لأنّي كنت قد أفرطت في شرب النبيذ، وإذ استيقظت استبّدت بي الرغبة في التدخين. وكان الوقت قد تأخّر، فركضت كي ألحق بالترام. واشتغلت فترة ما بعد الظهيرة كاملة. كان الجوّ شديد الحرارة في المكتب، ومساءً كنت سعيداً جداً، إذ عدت أمشي الهوينى على امتداد الرصيف. كانت السماء خضراء، وكنت أحسّني فرحاً. على أنّي عدت مباشرة إلى بيتي، إذ رغبت في أن أحضّر لنفسي بعض البطاطس المسلوقة.

أثناء ارتقائي السلّم المظلم، صادفت الشيخ سلامانو، جاري الجُنُب. كان برفقة كلبه. منذ ثمان سنوات ونحن نراهما معاً. كان السَّبَنْيَلي[1] مصاباً بداء جلدي، مرض الحُمرة، على ما أعتقد، والذي كاد يتسبب في سقوط كامل وبره، ويملأ جلده بقعاً وبثوراً سمراء. ولفرط ما عاشا معاً، في غرفة صغيرة، انتهى المطاف بالشيخ سلامانو إلى أن صار يشبهه. هو أيضاً لديه على الجلد بثور محمرّة، وشعره الأصفر خفيف جداً. أمّا الكلب فقد أخذ عن صاحبه مشية مقوّسة، وخطماً بارزاً والرّقبة الممدودة. يبدوان من الفصيلة نفسها، ومع ذلك كانا يتباغضان. يأخذ الشيخ كلبه للتجول، مرتين في اليوم، على الساعة الحادية عشرة، ثم على الساعة السادسة. ومنذ ثمان سنوات لم يغيّرا مسار جولتهما. إذ بالإمكان رؤيتهما على امتداد شارع ليون، الكلب يجرّ الرّجل، حتى يتعثّر الشيخ سلامانو. عندئذ يضرب كلبه ويشتمه. وآنذاك يتراجع الكلب مذعوراً وينقاد لصاحبه. وابتداء من تلك اللحظة يصير الشيخ هو من يسحب الآخر. وإذ ينسى الكلب، يعود إلى جرّ صاحبه فيناله الضرب والشتم مجدّداً. فيظلان، حينئذ، على الرصيف يتبادلان النظرات؛ الكلب ينظر إلى الرجل برعب، بينما الرجل ينظر إلى الكلب بكراهية. ويتكّرر الأمر كلّ

---

(١) السبنيلي L'épagneul: كلب صيد أوبر، صغير الحجم وقصير القوائم.

يوم. وعندما يريد الكلب أن يبول لا يمنحه الشيخ ما يكفي من الوقت ويسحبه قبل أن ينتهي، فيخلّف السَّبَنْيَلي وراءه خيطاً من القطرات الصغيرة. وإن اتفّق وفعلها الكلب داخل الغرفة يتعرّض للضرب أيضاً. منذ ثمان سنوات وهذا الأمر مستمرّ. يقول سليست «إنّه لأمر مؤسف»، غير أنّ لا أحد يستطيع إدراك عمق الموضوع. عندما لقيت سلامانو على السلّم كان يسبّ كلبه. كان يقول له: «أيّها الحقير! أيّها الجيفة!»، بينما الكلب يئنّ. قلتُ: «مساء الخير»، لكنّ الشيخ ظلّ منخرطاً في السباب. حينئذ سألته عمّا فعل به الكلب. ولم يجبني. كان يكتفي بالقول: «حقير! جيفة!». وخمنّت، أنّه، وهو منحن على كلبه، كان يصلح شيئاً في طوقه. تكلّمت بصوت أعلى. وعندئذ، دون أن يلتفت نحوي، أجابني بغضب مكتوم: «إنّه ما يزال هنا». ثمّ انصرف ساحباً الحيوان الذي كان ينقاد للجر على قوائمه الأربع وهو يئنّ.

وفي هذه اللحظة بالضبط دخل جاري الجُنُب الثاني. يردّدون في الحيّ أنّه يعتاش على النّساء. غير أنّه، إذ يُسأل عن مهنته، يقول إنّه «أمين مخزن». وعموماً، هو ليس محبوباً البتّة. بيد أنّه كثيراً ما يكلّمني، وأحياناً يأتي لقضاء لحظات معي، لأنّي أنصت له. بل إنّي لأجد ما يقوله مثيراً للاهتمام. ثمّ إنّي لا أملك سبباً حتّى لا أكلّمه. يُدعى رايمون سانتِس. هو قصير بعض الشيء،

وكتفاه عريضتان وأنفه أشبه بأنف ملاكم. ودائماً أنيق الملابس. وهو أيضاً قال لي متحدّثاً عن سلامانو: «أليس أمراً محزناً!» ثمّ سألني عمّا إذا كان الأمر يثير اشمئزازي، فأجبته نافياً.

صعدنا، وكنت على وشك توديعه حين قال لي: «عندي في البيت قليل من النقانق[1] والنبيذ. هل ترغب في تناول قطعة معي؟...» فكّرت في أنّ هذا الأمر سيريحني من الطبخ، فوافقت. هو أيضاً لا يملك سوى غرفة واحدة، ومطبخ بلا نافذة. وفوق سريره ملاكٌ من الجبس لونه أبيض ووردي، وصور بعض الأبطال، وصورتان أو ثلاث لنساء عاريات. كانت الغرفة قذرة والسرير غير مرتّب. أوقد في البداية مصباح الغاز، ثمّ أخرج من جيبه ضمادة قذرة بعض الشيء، ولفّ بها يده اليمنى. سألته عمّا به. فأخبرني أنّه تشاجر مع أحدهم، شخص يريد به سوءاً.

قال لي: «لعلّك تفهمني يا سيد مورسو، لم أتشاجر لأنّي شرير، وإنّما لأنّي سريع الغضب. لقد قال لي الآخر: «اِنزل من الترام إن كنت رجلاً»، فرددت عليه: «هيّا، ابق هادئاً». فقال لي إنّي لست رجلاً. فنزلت حينئذ وقلت له: «كفى، هذا أسلم لك، وإلا أدّبتك» فأجابني: «بماذا؟»، عندئذ ضربته لكمة. سقط.

---

(١) تحديداً، نقانق الفصيد، وهي نقانق تصنع عادة من الدّم المتخثّر، دم الخنزير، أو دم الدواجن إن كانت نقانق بيضاء.

وكنت أنوي مساعدته على النهوض، لكنّه وجّه لي ضربات بقدمه وهو ما يزال طريح الأرض. فضربته ضربة من ركبتي، ثمّ لكزته مرّتين. فصار وجهه دامياً. سألته عمّا إذا كان قد اكتفى، فأجابني: «أجل».

طيلة الفترة التي كان سانتِس يحكي فيها حادثته كان يلفّ ضمادته. وكنت جالساً على السرير. قال لي: «أرأيتَ، أنا لم أكن البادئ للشجار، وإنّما هو من أخطأ في حقّي». كان مصيباً، وقد أقررت بذلك. وحينئذ، قال لي إنّه، تحديداً، كان يريد التماس نصحي بخصوص هذه القضيّة، فأنّا على ما يرى رجل، ولي خبرة بالحياة، وأستطيع مساعدته، ثمّ بعد ذلك سيصير رفيقي. لم أقل شيئاً، فسألني مرّة أخرى، عمّا إذا كنت أرغب في أن أكون صديقه، أجبته بأنّ الأمر سيّان عندي، فبدا مبتهجاً. أخرج نقانق، وشرع في طهوها فوق لهيب المدفأة، ورتّب كؤوساً وصحوناً وشوكات وسكاكين وقنينتي نبيذ. وقام بكلّ ذلك وهو صامت. ثمّ جلسنا إلى المائدة. وبينما نأكل روى لي حكايته. وكان في البداية متردّداً قليلاً. قال: «لقد تعرفت على امرأة... وكانت، كي أصدقك القول، عشيقتي». والرّجل الذي تشاجر معه هو شقيق هذه المرأة. أخبرني أنّه كان يُنْفِق عليها. لم أُجب، ومع ذلك أردف مباشرة أنّه على علم بما يردّد في الحيّ، لكنّ ضميره مرتاح، فهو يشتغل أمين مخازن.

ثمّ قال لي: «وعَوداً إلى حكايتي، لقد انتبهت إلى أنّ ثمّة ما يشي بالخيانة»، لقد كان يعطيها فقط ما يكفيها لتعيش. إذ كان يدفع إيجار غرفته بنفسه، ويعطيها عشرين فرنكاً في اليوم لشراء الطعام. «ثلاثمائة فرنك ثمن إيجار الغرفة، وستمائة فرنك نظير الطعام، وبين الفينة والأخرى، أقتني لها، زوج جوارب تحتية. فيكون المجموع ألف فرنك. والسيدة لم تكن تعمل. لكنّها كانت تقول لي دائماً إنّ النقود تكاد لا تكفي، وإنّها لن تستطيع تدبّر جميع أمورها بما أعطيها. مع أنّي كنت أقول لها: «لمَ لا تشتغلين نصف دوام؟ ستريحينني من تلك الأشياء الصغيرة خاصتك. فقد اشتريت لك طقم ملابس هذا الشهر، وأعطيك عشرين فرنكاً كلّ يوم، وأدفع عنك الإيجار. بينما أنت تشربين القهوة مساءً مع صديقاتك، تعطينهم القهوة والسّكر. وأنا أعطيك النقود. أحسنت إليك، فردَدْتِ الإحسانَ إساءةً». لكنّها لم تكن تشتغل. كانت تردّد دائماً أنّها لا تستطيع، وهكذا انتبهت إلى أنّ ثمّة خيانة في الأمر».

ثمّ حكى لي أنّه وجد بطاقة يانصيب في حقيبتها ولم تستطع أن تبرّر له كيف اشترتها. ثمّ بعد ذلك بمدّة وجيزة وجد لديها وثيقة رهن، علم بموجبها أنّها رهنت سوارَيْن. وحتّى تلك اللّحظة كان يجهل امتلاكها ذينك السوارين. عندئذ تيقّنتُ من أنّ ثمّة خيانة. فهجرتُها. لكن، قبل أن أهجرها، ضربتها. وأريتها

حقيقتها. قلت لها إنّ غاية أملها أن تلهوَ بشيئها. كما قلت لها، وأنت تفهم يا سيد مورسو: «ألا ترين أنّ الجميع يحسدك على النّعمة التي أمنحك. ستدركين، بعد فوات الأوان، ما كنت ترفلين فيه من نعيم».

لقد ضربها حتّى أدماها. وقبل ذلك اليوم، ما كان يضربها فعلاً. «كنت أضربها تلك الضربات الخفيفة، كنت أضربها بحنوّ، إن جاز التعبير. كانت تصرخ قليلاً. وكنت أسدل الستائر فينتهي الأمر كما العادة. لكنّ الأمر كان جدياً هذه المرّة. وبالنسبة لي لم أعاقبها كما يجب».

ثمّ شرح لي بعد ذلك أنه لهذا السّبب كان بحاجة إلى مشورتي. وتوقّف ليصلح فتيل المصباح الذي بدأ يتفحّم. كنت ما أزال أنصت إليه. وكنت قد شربت ما يقارب لتراً من النبيذ وصرت أحسّ بالحرارة في صدغيّ. وبدأت أدخّن من سجائر رايمون، إذ نفدت سجائري. وكانت آخر الترامات تمرُّ وتحمل معها ضجيج الضاحية الذي صار الآن بعيداً. استأنف رايمون حديثه. قال إنّ ما يزعجه هو أنّه ما يزال يشتاق إلى جماعها. لكنّه يرغب في معاقبتها. فكّر في البداية في اصطحابها إلى نُزل، ثمّ الاتصال بـ «شرطة الآداب»، ليتسبّب لها في فضيحة، فيتمّ وضعها على لائحة البغايا. بعد ذلك لجأ إلى أصدقاء يشتغلون في ذاك الوسط، فما استطاعوا إيجاد شيء ضدّها. وكما وضّح

لي رايمون، يستحقّ الأمر أن يخالط المرء ذاك الوسط. أخبرهم بذلك، فاقترحوا أن «يراقبوها». لكنّ رغبته لم تكن تلك. فأخذ فرصة للتفكير. وكان يريد أن يسألني شيئاً. بل، إنّه قبل أن يسألني ذاك الشيء، كان يودّ أن يعرف رأيي في هذه القصّة. أجبته أنّ لا رأي لي، بيد أنّي أجد الأمر مثيراً للاهتمام. سألني عمّا إذا كنت أعتقد أنّه كانت ثمّة خيانة في الموضوع، وأنا، يبدو لي أنّ ثمّة خيانة بالفعل، وهل أعتقد أنّه ينبغي معاقبتها؟ ثمّ ما كنت فاعلاً لو كنت مكانه. أجبته أنّه ليس بوسع المرء أبداً أن يعرف، ما يمكن أن يفعله في مثل هذه الأمور، بيد أنّي أتفهّم رغبته في معاقبتها. شربت قليلاً من النبيذ بعدُ. أشعل سيجارة، ثمّ بسط لي ما يفكّر فيه. كان يريد أن يكتب لها رسالة «يعنّفها فيها، لكن في الآن نفسه يذكّرها بأشياء تندم على ضياعها». وبعد أن تعود إليه، سيضاجعها، ثمّ إذ يفرغ من الأمر، سيبصق في وجهها ويطردها. وفي الواقع، وجدتُ أنّها بهذه الطريقة ستكون قد عوقبت. بيد أنّ رايمون قال لي إنّه يلفي نفسه عاجزاً عن كتابة هذه الرّسالة، لهذا فكّر في أنّني أستطيع تحريرها بدلاً عنه. وإذ لم أقل شيئاً، سألني عمّا إذا كان يزعجني أن أكتبها في الحين، فأجبته كلاّ.

فنهض، بعد أن شرب كأس نبيذ. أزاح الصحون وقطعة النقانق الباردة التي تركناها. ثمّ مسح بعناية قماش الطاولة

المشمّع. تناول من درج صُوّانه ورقة مربّعة، وظرفاً أصفر، وحاملة ريشة خشبية حمراء ومحبرة مربّعة، بنفسجية الحبر. وإذ أخبرني باسم المرأة، لاحظت أنّها كانت مورية[1]. كتبت الرسالة. كتبتها كيفما اتّفق، بيد أنّي سعيت إلى إرضاء رايمون، إذ ما كان لي من سبب كي لا أرضيه. ثمّ قرأت الرسالة قراءة جهورة. أنصت إليّ وهو يدخّن سيجارته ويهزّ رأسه، ثمّ طلب منّي أن أعيد قراءتها. كان راضياً تمام الرضا. قال لي: «كنت على يقين من أنّك خبير بالحياة». ولم أكن قد انتبهت إلى أنّه يخاطبني بضمير المفرد، رافعاً الكلفة[2]. وحين أعلن لي: «الآن، أنت رفيق حقيقي»، فاجأني الأمر. كرّر جملته فأجبته: «أجل». وما كان يشكّل عندي فرقاً أن يكون صديقي، بيد أنّه كان يبدو راغباً في ذلك بشدّة. أغلق الرّسالة وأتينا على النبيذ. ثمّ بقينا برهة ندخّن دون أن نقول شيئاً. وفي الخارج، كان كلّ شيء هادئاً، وسمعنا صرير سيارة تعبر الطريق. قلت: «إنّ الوقت قد تأخرّ». وكان رايمون يشاطرني الرأي. وأشار إلى أنّ الوقت يمرّ سريعاً، وبمعنى مّا كان محقاً. كنتُ وسنانَ، بيد أنّي كنت أجد

---

(١) موري/ مورية: اللقب الذي كان يطلقه الأجانب على سكان شمال إفريقية.

(٢) لضمير المخاطب في الفرنسية وجهان، وجه مفرد حميمي TOI، ثمّ ضمير الجمع VOUS ويستعمل لخلق مسافة معينة مع المخاطب، في السياقات الرسمية على سبيل المثال.

مشقّة في النهوض. ولعلّي كنت أبدو متعباً، إذ قال لي رايمون إنّي لا ينبغي أن أهمل نفسي. لم أفهم قصده في البداية. فشرح لي أنّه علم بوفاة أمّي، بيد أنّ ذلك الأمر كان ليحدث يوماً مّا. وقد كان ذلك رأيي أيضاً.

نهضت، فشدّ رايمون على يدي بحرّارة وقال لي إنّ الرّجال يفهمون بعضهم دائماً. وأثناء مغادرتي أغلقت الباب خلفي، وبقيت لبرهة في الظلام على مِسْطحة الدرج. كان البيت ساكناً ومن أعماق بئر السلّم كانت تصعد لفحة معتمة ورطبة. وما كنت أسمع غير دفق دمي الذي يطنّ في أذنيّ. ظللت ساكناً. غير أنّ الكلب، في شقّة الشيخ سلامانو، أنّ أنيناً مكتوماً.

٤

اِشتغلت كثيراً الأسبوع بأكمله، وأتى إليّ رايمون يخبرني أنّه أرسل الرّسالة. وقد ذهبت مرّتين إلى السينما مع إمانويل، الذي لا يفهم دائماً ما يجري على الشاشة. فأكون ملزماً بإعطائه إيضاحات. أمس كان يوم سبت، وقد جاءت عندي ماري كما اتفقنا. لقد اشتهيتها بشدّة، إذ كانت ترتدي فستاناً جميلاً ذا خطوط حمراء وبيضاء، وتنتعل صندلاً جلدياً. كان بوسع المرء أن يستشفّ نهديها الصلبين، وكانت سمرة الشمس تمنحها مُحيّا زهرة. ركبنا الباص وذهبنا كيلومترات خارج مدينة الجزائر، إلى شاطئ تحفّه الصخور، ويحدّه القصب من جهة البرّ. ولم تكن شمس الرابعة شديدة الحرارة، لكنّ الماء كان دافئاً، تعلوه أمواج مديدة وكسلى. علّمتني ماري لعبة. تقوم اللعبة، على عَبّ زبد الأمواج أثناء السّباحة، وجمع كلّ الرغوة الممكنة في الفم، ثمّ الاستلقاء على الظهر وقذفها في اتّجاه السّماء. ينشأ عن العملية شريط دانتيلا من الرغوة التي تذوب في الهواء أو تسقط على وجهي في رذاذ دافئ. غير أنّ فمي التهب، بعد مدّة قصيرة،

بسبب مرارة الملح. حينئذ لحقت بي ماري والتصقت بي في الماء. وألقمت فمي فمها. رطّب لسانها شفتيّ، ورحنا نلفّ مع الأمواج برهة.

وحين ارتدينا ملابسنا على الشاطئ، كانت ماري تحدّق فيّ بعيون متلألئة. قبّلتها. وبدءاً من تلك اللّحظة لم نتبادل كلمة. ضممتها إليّ وكنّا متلهفيْن لركوب حافلة، والعودة إلى البيت، ثمّ الارتماء معاً فوق سريري. وكنت قد تركت النافذة مفتوحة، فكان رائعاً الإحساسُ بليل الصيف ينسكب فوق جسدينا المُلوّحين.

في هذا الصباح، بقيت ماري معي، وقلت لها إنّنا سنتناول غذاءنا معاً. نزلتُ أشتري اللّحم. وأثناء صعودي، سمعت صوت امرأة في غرفة رايمون. وبعد ذلك بقليل، نهر الشيخ سلامانو كلبَه، وسمعنا وقع نعل ومخالب على درجات السلّم الخشبية، ثمّ: «أيّها الحقير، أيّها الجيفة»، وخرجا معاً إلى الشارع. رويت لماري حكاية الشيخ فضحكت. كانت ترتدي إحدى مناماتي بعدما شمّرت كمّيها. وإذ ضحكَت، رغبتُ فيها مجدّداً. وبعد برهة، سألتني هل أحبّها. أجبتها أنْ لا معنى لهذا الأمر، بيد أنّي أخالني غير مغرم بها. فاكتست هيئتها سيماء الحزن. غير أنّها، أثناء إعداد الغذاء، ودون سبب، ضحكت من جديد، لدرجة أنّي

قبّلتها. وكانت تلك اللحظة التي انطلق فيها ضجيج مشاجرة من غرفة رايمون.

سمعنا في البداية صوت امرأة حاداً، ثمّ صوت رايمون وهو يقول: «لقد اشتقت إليك، لقد اشتقت إليك. سألقنّك كيف تدفعينني إلى الاشتياق إليك». كانت ثمّة بعض الأصوات المكتومة، ثمّ صرخت المرأة، صرخت صرخة رهيبة، حدّ أنّ الجناح قد امتلأ فوراً بالناس. أنا وماري أيضاً خرجنا. كانت المرأة ما تزال تصرخ، ورايمون ما يزال يضربها. قالت لي ماري إنّ الأمر فظيع، فلم أجب بشيء. طلبتْ منّي أن أذهب لإحضار شرطي، فأخبرتها أنّي لا أحبّ الشّرطة. ومع ذلك، حضر رجل شرطة برفقة مستأجر يسكن في الطابق الثاني، كان يشتغل سبّاكاً. طَرق الشرطيّ الباب ولم نسمع شيئاً. طرق طرقاً أعنف، وبعد برهة أجهشت المرأة وفتح رايمون الباب. كانت في فمه سيجارة، وبدا بشوشاً. هرولت الفتاة نحو الباب وأخبرت الشرطيّ أنّ رايمون ضربها. سأله الشرطيّ «ما اسمك؟» فأجابه: رايمون. قال الشرطي: «إرمِ سجارتك، وأنت تكلّمني». تردّد رايمون، نظر إليّ، ثمّ سحب نفساً من سيجارته. وهنا وجّه له الشرطي بكامل قوّته صفعة ثقيلة أصابت خدّه في الصميم. وسقطت السيجارة بعيداً بأمتار. تبدّل وجه رايمون، لكنّه لم ينبس بشيء في الحين، ثمّ سأل بصوت مرتجف عمّا إذا كان بوسعه أن يستعيد عقب

سيجارته. قال له الشرطيّ إنّه يستطيع ذلك ثمّ أضاف: «لكنّك في المرة القادمة ستأخذ بعين الاعتبار أنّ شرطياً ليس أراجوزاً». وأثناء ذلك كانت الفتاة تنتحب وتُردّد: «لقد ضربني. إنّه قوّاد». سأل رايمون آنذاك: «أوَيُجيز القانون هذا؟ سيدي الشرطيّ، أن تنعت رجلاً بالقوّاد». لكنّ الشرطيّ أمره «أن يقفل فمه». حينئذ استدار رايمون شطر الفتاة وقال لها: «اِنتظري، صغيرتي، سنلتقي مرّة أخرى». أمره الشرطي بأن يصمت، وأخبره أنّ الفتاة ينبغي أن ترحل، بينما يظلّ هو في غرفته حتّى يصله استدعاء المخفر. وأضاف أنّ رايمون ينبغي أن يخجل من نفسه، إذ شرب حتّى صار يرتعد بهذا الشّكل. حينئذ قال رايمون موضّحاً: «لست ثملاً سيدي الشرطيّ، أنا فقط واقف أمامك، ولهذا السبب أرتعد. إنّه أمر طبيعي». أقفل بابه وانفضّ الجميع. أنهيت وماري إعداد غذائنا. لكنّها لم تكن جائعة، فأكلتُ كلّ الوجبة تقريباً. اِنصرفتْ في الواحدة، وغفوت قليلاً.

حوالي الساعة الثالثة قُرع بابي ثمّ دخل رايمون. بقيت مضطجعاً. جلس عند طرف سريري، وظلّ صامتاً برهة. سألته عن مآل قضيّته. أخبرني أنّه قام بما يجب فعله، لكنّها صفعته فضربها. أمّا الباقي فقد كنت شاهداً عليه. أخبرته أنّه يبدو لي أنها قد نالت جزاءها الآن، وأنه ينبغي أن يبتهج. كان يشاطرني الرّأي، ونبّهني إلى أنّ ما فعله الشرطيّ ذهب هباءً، فهو لن يغيّر

شيئاً من الضربات التي تلقّتها. وأضاف أنّه يعرف رجال الشرطة، ويعلم كيف ينبغي التصرف معهم. ثمّ سألني إذا ما كنت أتوقّع أن يرُدّ الصفعةَ التي تلقاها من الشرطيّ. أجبته أنّي ما كنت أنتظر شيئاً، ثمّ إنّي لا أحبّ رجال الشرطة. بدا رايمون مسروراً. وسألني إذا ما كنت أرغب في الخروج معه. نهضت وبدأت أمشّط شعري. قال لي إنّي ينبغي أن أشهد له في المحكمة. كان الأمر بالنسبة إليّ سواء، لكنّي ما كنت أعرف ما ينبغي أن أقول. وبحسب رايمون، يكفي أن أصرّح بأنّه كان قد اشتاق للفتاة. فقبلت أن أشهد له.

خرجنا، ودعاني رايمون إلى احتساء كأس عرق. ثمّ رغب في أن نلعب دور بلياردو، وما كاد يغلبني. وأراد بعد ذلك أن نقصد الماخور، لكنّي رفضت لأنّي لا أحبّ هذا الأمر. فعدنا، إذاً، بتؤدة وكان يردّد لي كم كان مسروراً لأنّه تمكن من تأديب عشيقته. كنت أجده لطيفاً معي، وخمّنت أنّي قضيت وقتاً ممتعاً.

من بعيد لاح لي عند عتبة الباب الشيخ سلامانو الذي بدا متوتراً. وإذ دنونا منه لاحظت أنّ كلبه لم يكن برفقته. كان ينظر في كلّ الاتجاهات، ويدور حول نفسه، ويحاول خرق عتمة البهو، ويتمتم بكلمات لا رابط بينها، ثمّ يعود ليتقصّى الشارع بعينيه الحمراوين الصغيرتين. ولمّا سأله رايمون عمّا حدث لم يجبه فوراً. وسمعته سمعاً مبهماً يهمس: «حقير، جيفة»، ثمّ

يمعن في اضطرابه. سألته أين كلبه؟ فأجابني بغتة أنّه رحل. ثمّ، فجأة، تكلّم بطلاقة: «لقد اصطحبته كالعادة إلى ساحة الملاهي، وكان ثمّة حشد من النّاس حول أكشاك العرض. وتوقفت كي أشاهد عرض: «ملك الهروب». وعندما هممت بالانصراف لم يكن هناك. وبالطبع، كنت أفكّر منذ مدّة في أن أشتري له طوقاً أطول. بيد أنّي ما كنت لأصدّق قطّ أنّ هذا الجيفة قد يفرّ بهذا الشّكل».

شرح له رايمون حينئذ أنّ الكلب قد شرد، وأنّه سيعود. وأتاه بأمثلة عن كلاب قطعت عشرات الكيلومترات كي تعود إلى أصحابها. بيد أنّ الشيخ بدا أكثر انفعالاً. قال: «لكنّهم سيأخذونه منّي، أوَ تفهم. إذا ما آواه أحدهم. لكنّ هذا الأمر غير ممكن، إنّه يثير اشمئزاز الجميع بقروحه. ستستلمه الشرطة، لا ريب». قلت له إنّه ينبغي حينئذٍ أن يذهب إلى حيث يحتجزون الكلاب الضالة، وهناك سيعيدونه إليه بعد أن يؤدي ثمن بعض الرّسوم. سألني عمّا إذا كانت هذه الرسوم باهظة. وما كان لي علم بذلك، فانتابه الغضب وقال: «أدفع مالاً لأستردّ تلك الجيفة! آه! فليهلك!». ثمّ بدأ يسبّ. ضحك رايمون ثمّ دخل المنزل. تبعته، ثمّ افترقنا فوق سطيحة الطابق. بعد ذلك ببرهة سمعت خطو الشيخ الذي جاء يطرق بابي. ولمّا فتحت الباب ظلّ واقفاً برهة عند العتبة، ثمّ قال: «اِعذرني، اعذرني». دعوته إلى الدخول،

لكنّه أبى. كان يحدّق في رأس حذائه، وفي يديه الرّاجفتين. ودون أن يواجهني، سألني: «لن يأخذوه منّي. قل لي يا سيد مورسو. سيعيدونه إليّ. وإلا ما الذي سيحلّ بي؟» أخبرته أنّهم يحتفظون بالكلاب ثلاثة أيام في انتظار أصحابها، ثمّ يفعلون بها ما يبدو لهم أنسب. نظر إليّ صامتاً. ثمّ قال لي: «عِم مساءً». أقفل الباب، وسمعته يتحرّك جيئة وذهاباً. فرقع سريرُه. ومن الصوت الغريب الخافت الذي اجتاز الجدار علمت أنّه كان يبكي. ولم أدرِ لمَ خطَرت ببالي أمّي. لكنْ كان عليّ أن أنهض باكراً صباح غد. وما كنت جائعاً، فنمت دون أن أتعشى.

٥

هاتفني رايمون على هاتف المكتب. قال لي إنّ أحد أصدقائه (وكان قد حدّثه عنّي) يدعوني لقضاء نهار الأحد في بيته الشاطئي، قريباً من مدينة الجزائر. أجبته أنّي أرغب في ذلك، بيد أنّي وعدت صديقة بقضاء نهار الأحد معها. فأجابني رايمون، فوراً بأنّها مدعوّة أيضاً، فزوجة صديقه سيسعدها أن لا تجد نفسها المرأة الوحيدة وسط مجموعة رجال.

أردت أن أنهي الاتصال فوراً، لعِلمي بأنّ الرئيس لا يروقه أن نستقبل الاتصالات القادمة من المدينة. لكنّ رايمون طلب منّي الانتظار، وأخبرني أنّه كان يستطيع أن يبلغني بهذه الدّعوة مساءً، بيد أنّ ثمّة شيئاً آخر ينوي إخطاري به. فقد تعقبّته طيلة النهار زمرة من العرب، وكان بينهم أخ عشيقته. «إذا ما لمحتَهُ، نبِّهني»، قلت له إنّي فهمت.

بعد ذلك بقليل دعاني المدير، وانزعجت في البداية إذ خِلته سيطلب منّي أن أتكلّم في الهاتف أقلّ، وأن اشتغل أكثر. لكنّه لم يذكر شيئاً من ذلك. أبلغني رغبته في الإفصاح عن مشروع ما

زالت ملامحه لم تتحدّد بعد. وأراد استشارتي في المسألة فحسب. كان ينوي فتح مكتب في باريس ليباشر القضايا في محلّها ومباشرة مع الشركات الكبرى، وأراد أن يعرف مدى استعدادي للذهاب إلى هناك. سيتيح لي هذا الأمر أن أعيش في باريس، وأقضي في السفر جزءاً من السنة. «إنّك شابٌ، وأعتقد أنّه نمط حياة سيعجبك». أجبته أجل، لكن في الواقع، الأمرُ عندي سواء. سألني حينئذ عمّا إذا كنت غير مهتمّ بإحداث تغيير في حياتي. أجبته بأنّ المرء لا يغيّر حياته البتّة، وأنّ كلّ الحيوات سواء، ثمّ إنّي لست مستاءً من حياتي هنا. بدا ممتعضاً، وقال لي إنّي دائماً ما أجيب إجابات ملتفّة لا تمسّ صلب الموضوع، وإنّي شخص بلا طموح، وإنّ تأثير هذا الأمر على الأعمال كارثيّ. ثم عُدتُ للقيام بعملي. وما كنت راغباً في إثارة استيائه، بيد أنّي لم أرَ من سبب لتغيير حياتي. وحين أفكّر جيداً في الأمر أجد أنّي لست تعساً. عندما كنت بعدُ طالباً كنت أحمل الكثير من مثل تلك الطموحات. لكنّي حين تركت الدراسة فهمت بسرعة أنّ لا أهميّة لشيء من ذلك فعلاً.

مساءً مرّت بي ماري، وسألتني عمّا إذا كنت راغباً في الزواج بها. أجبتها أنّ الأمر سيّان بالنسبة إليّ، وأنّنا نستطيع القيام بذلك إذا ما كانت راغبة فيه. فأرادت أن تعرف إذا ما كنت أحبّها. أجبتها، مثلما فعلت في مرّة سابقة، قائلاً إنّ هذا الأمر لا يعني

شيئاً، بيد أنّي ما كنتُ أحبّها على وجه اليقين. فقالت: «ولمَ تتزوّجني إذاً؟». أجبتها أن لا أهميّة لهذا الأمر، وأننا نستطيع الزواج إن كانت راغبة في ذلك. ثمّ إنّها هي من يطلب ذلك، بينما أكتفي أنا بقول نعم. نبّهتني، آنئذ، إلى أنّ الزواج مسألة جديّة للغاية. أجبتها: «كلاّ». سكتت برهة، وأخذت تحدّق فيّ بصمت. ثمّ تكلّمت. كانت تريد أن تعرف فقط إذا ما كنتُ لأقبل الطلب لو أنّه أتى من امرأة أخرى غيرها، امرأة أكون متعلّقاً بها بنفس الدرّجة. أجبتها: «بالطبع». فتساءلتْ حينئذٍ عمّا إذا كانت هي تحبّني، وما كان بوسعي أن أعرف شيئاً عن هذا الأمر. وبعد برهة صمت أخرى همست قائلة إنني غريب الأطوار، وإنّها تحبّني قطعاً لهذا السبب، بيد أنها قد تبغضني يوماً مّا للأسباب نفسها. وإذ ظللت صامتاً، لأن ما من شيء كان بإمكاني إضافته، أخذت ذراعي وقالت مبتسمة إنّها تريد الزواج بي. فأجبتها أنّنا سنتزوّج ما إن ترغب في ذلك. أخبرتها عن اقتراح رئيسي، فقالت إنّها تودّ زيارة باريس. فقلت لها إنني عشت فيها سابقاً، فأرادت أن أصفها لها. أجبتها: «إنّها مدينة متّسخة. ثمّة حمَام وساحات سوداء. والنّاس هناك بيض البشرة».

ثمّ ذهبنا وقطعنا المدينة، عبر شوارعها الكبيرة. كانت النّساء جميلات، وسألتُ ماري إن كانت قد لاحظت ذلك. قالت أجل، وإنّها تتفهّمني. ولبرهة، لم نتبادل كلمة. بيد أنّي وددت لو

تبقى معي، وقلت لها إنّ بإمكاننا تناول العشاء معاً عند سليست. وكانت ترغب جداً في ذلك، لكن كان لديها ما تفعله. كنّا قريبيْن من بيتي فودّعتها. نظرت إليّ: وقالت: «أوَ لا ترغب في معرفة ما عليّ أن أفعل؟». كنت أرغب في معرفة ذلك، بيد أنّي لم أفكر في أن أسألها، وهذا ما بدا أنها تؤاخذني عليه. حينئذ، وإزاء ارتباكي، ضحكت مجدّداً، ومالت إليّ بكامل جسدها حتّى تمكّنني من فمها.

تعشّيت عند سليست. وكنت قد شرعت في الأكل حين دخلت امرأة قصيرة، غريبة المظهر، وسألتني إن كان بإمكانها الجلوس إلى طاولتي. وبالطبع كانت تستطيع ذلك. كانت حركاتها متشنّجة وعيناها تبرقان في وجه صغير يشبه التّفاحة. خلعت سترتها وجلست، ثمّ تفحّصت قائمة الطعام بحماس. نادت على سليست ثمّ طلبت فوراً كلّ ما تريده من أطباق بصوت دقيق وسريع في الآن نفسه. وفي انتظار المقبّلات فتحت حقيبتها وأخرجت منها ورقة مربّعة صغيرة وقلماً، وجمعت الحساب، ثمّ أخرجت من كيس نقود المبلغ المضبوط، مضافاً إليه بعض البقشيش، ووضعته أمامها. وإذّاك أتوها بالمقبّلات، فالتهمتها بسرعة. وبينما كانت تنتظر الطبق الموالي أخرجت مجدّداً من حقيبتها قلماً أزرق ومجلّة تعرض برامج الراديو في الأسبوع. وبكثير من العناية علّمت كلّ البرامج تقريباً، واحداً بعد آخر.

وبما أنّ المجلّة كانت تتألّف ممّا يقارب اثنتي عشرة صفحة، فقد أتمّت عملها بدقّة طيلة تناولها وجبتها. وكنت قد فرغت من طعامي، وهي ما تزال هي تضع العلامات بالانكباب نفسه. بعد ذلك قامت وارتدت سترتها، بالحركات المضبوطة الآلية نفسها، ثمّ انصرفت. وإذ لم يكن لديّ ما أفعله بعدُ خرجت أنا أيضاً، وتبعتها مسافة. كانت قد اتخذت مسارها على حافّة الرّصيف، وبسرعة وثقّة مذهلتين تابعت طريقها، دون أن تنحرف عن مسارها أو تلتفت إلى الخلف. وانتهى بي المطاف إلى أن أضعتها، فعدت أدراجي. فكّرت في أنّها كانت غريبة الأطوار، بيد أنّي سرعان ما نسيت أمرها.

عند عتبة بابي ألفيت الشيخ سلامانو. أدخلته بيتي، وأخبرني أنّ كلبه قد ضاع لأنّه لم يجده في محجز الكلاب. قال له العمال إنّه ربّما قضى مدهوساً في حادث. وسألهم عمّا إذا كان بالإمكان معرفة ذلك من مخافر الشرطة، فأخبروه أنّهم لا يسجّلون آثار مثل هذه الأشياء، لأنّها تحدث طيلة الوقت. قلت للشيخ سلامانو إنّ بوسعه الحصول على كلب آخر، فكان محقّاً إذ نبّهني إلى أنّه قد ألِف كلبه ذاك.

كنت مقرفصاً على سريري، في حين جلس سلامانو على الكرسي أمام الطاولة. كان ينظر إليّ وجهاً لوجه، ويضع يديه على ركبتيه. كان ما يزال يضع لبدته المهترئة. وكان يغمغم

بأطراف جمل من تحت شاربه المصفرّ. كان يضجرني قليلاً، لكن ما كان لديّ ما أفعله، وما كانت بي رغبة في النّوم. ورغبةً في الكلام فقط سألته عن كلبه. فأخبرني أنّه حصل عليه بعد وفاة زوجته. وكان قد تزوّج في سنّ متأخرة شيئاً مّا. في شبابه كان يودّ أن يمتهن المسرح: وحين كان في الفيلق العسكري كان يؤدّي أدواراً في تمثيليات عسكرية. بيد أنّه انضّم، في نهاية المطاف، إلى قِطاع السّكة الحديد، وليس آسفاً لذلك إذ لديه الآن معاشٌ لا بأس به. وما كان سعيداً مع زوجته، بيد أنّه في المحصّلة قد ألفها. وحين ماتت أحسّ نفسه وحيداً جداً. فطلب من أحد أصدقائه في المشغل كلباً، وأتاه بهذا الكلب، وكان صغيراً جداً. حتّى أنّه كان يطعمه بالرّضاعة. لكن بما أنّ الكلاب تعيش عمراً أقصر من النّاس فقد انتهى بهما المطاف إلى أن شاخا معاً. قال لي سلامانو: «لقد كان كلباً شرس الطّبع. وبين الفينة والأخرى كنّا نتشاجر. لكنّه، بالرغم بذلك، كان كلباً جيّداً». قلت له إنّه كان كلباً من فصيلة جيّدة، وبدا أنّ كلامي قد أفرحه. أضاف: «وأكثرَ، أنت لم تعرفه قبل أن يصيبه المرض. فقد كان وبره أجملَ ما فيه». لقد دأب سلامانو، كلّ ليلة وكلّ صباح، منذ أصيب كلبه بالداء، على أن يدهن جلده بمرهم. بيد أنّ مرضه الحقيقيّ، على ما يقول، كان هو الشيخوخة، والشيخوخة لا دواء لها.

في تلك اللحظة تثاءبتُ، فأعلن الشيخ عن نيّته في الانصراف. قلت له إنّ بإمكانه البقاء، وإنّي حزين لما ألمّ بكلبه. شكرني. قال لي إنّ أمّي كانت تحبّ كلبه كثيراً. وحين كان يتحدّث عنها كان يشير إليها قائلاً: «أمّك المسكينة». وافترض أنّي لا بد أن أكون أكثر تعاسة منذ أن رحلت أمّي، فلم أجبه. قال لي حينئذ، بسرعة وصوت مرتبك، إنّه كان يعلم بأنّ الناس في الحيّ كانوا قد أساؤوا الحكم عليّ لأنّي وضعت أمّي في مأوى المسنّين. بيد أنّه كان يعرفني، ويعلم أنّي كنت أحبّ أمّي كثيراً. أجبته أنّي ما زلت لا أعلم السبب، لكنّي أجهل أنّ النّاس يحاكمونني على هذا الأمر، بيد أنّ المأوى بدا لي أمراً طبيعياً، ما دمت لا أملك المال لرعاية أمّي، وأضفت قائلاً: «ثمّ إنها لم يعد لديها ما تقوله منذ زمن طويل، وكانت تضجر من المكوث وحدها». قال لي: «أجل، وفي المأوى يستطيع المرء، على الأقل، أن يجد رفاقاً». ثمّ استأذن في الانصراف. كان يريد النّوم. لقد تغيّرت حياته الآن، وما عاد يدري ما يفعل. ولأول مرّة، مذ عرفته، مدّ لي يده في حركة عابرة، فأحسست بالقشور الطافحة على جلده. اِبتسم قليلاً، وقبل أن يغادر قال لي: «أتمنّى أن لا تنبح الكلاب هذه اللّيلة. فدائماً ما أخال أن كلبي هو الذي ينبح».

٦

ألفيت مشقّة في النّهوض صباح الأحد، وكان على ماري أن تناديني وتهزّني. لم نتناول إفطارنا، لأنّنا كنّا نرغب في السّباحة باكراً. كنت أحسّ بالخواء التام، وببعض ألم في رأسي. وكان لسيجارتي طعم مرٌّ. وأخذت ماري تتهكّم عليّ قائلة إنّي أبدو «كمن يحضر جنازة». كانت ترتدي فستاناً أبيض من الكتّان، وقد أرسلت شعرها. قلت لها إنّها جميلة، فضحكت مبتهجة.

وأثناء نزولنا طرقنا باب رايمون، فأجابنا بأنّه نازل. ولمّا صرنا في الشّارع صفعني ضوء النّهار، إذ غدت الشّمس متوهّجة، وكنت متعباً، إضافة إلى أنّنا لم نفتح الشبابيك قبل مغادرتنا. كانت ماري تقفز من الفرح، ولم تكفّ عن القول إنّ الجوّ كان جميلاً. شعرت بتحسن، وانتبهت إلى أنّي كنت جائعاً. أخبرت ماري بذلك، فأرتني حقيبتها المصنوعة من القماش المشمّع، حيث وضعت ثوبَيْ السباحة خاصتنا، ومنشفة. وما كان لي إلا أن انتظر، ثمّ سمعنا رايمون يقفل بابه. كان يرتدي سروالاً أزرق وقميصاً أبيض قصير الكمّين. بيد أنّه اعتمر طاقية، مما

أضحك ماري، وكان ساعداه ناصعي البياض تحت الشعيرات السوداء. وقد أثار ذلك اشمئزازي قليلاً. كان يصفّر وهو نازلٌ، وبدا مسروراً جداً. قال لي: «أهلاً يا صاح»، ونادى ماري «آنسة».

وكنّا قد ذهبنا أمس إلى مخفر الشرطة وشهدت بأنّ رايمون كان قد «اشتاق» للفتاة. وأخلوا سبيله بعدما نال إنذاراً. ولم يدقّقوا في أقوالي. وأمام الباب تحدّثنا مع رايمون، وقرّرنا أخذ الباص. لم يكن الشاطئ بعيداً، بيد أنّنا هكذا سنصل بسرعة أكبر. وكان رايمون يعتقد أنّ صديقه سيسرّ برؤيتنا نصل باكراً. وكنّا نهمّ بالمضي، حين أشار لي رايمون بأن أنظر أمامي. شاهدت جماعة من العرب مستندين إلى واجهة مكتب التّبغ. كانوا يحدّقون فينا، ولكن بطريقتهم الخاصة، يحدّقون فينا وكأنّما لا نعدو أن نكون أحجاراً أو أشجاراً ميّتة. قال لي رايمون بأنّ الثاني من جهة اليسار هو خصمه، وبدا مشغول البال. وقال إنّ القضية، مع ذلك، قد صارت الآن طيّ النسيان. أمّا ماري فلم تفهم ما يجري وأرادت أن تستبين منّا الأمر. أخبرتها أنّهم عربٌ يريدون سوءاً برايمون. فرغبت في أن نرحل حالاً. استعاد رايمون ثباته ثمّ ضحك وقال إنّنا ينبغي أن نسرع.

قصدنا محطّة الباص التي كانت بعيدة قليلاً، ونبّهني رايمون إلى أنّ العرب ما عادوا يقتفون أثرنا. اِلتفتّ. كانوا ما يزالون هناك، في

المكان نفسه، وكان ينظرون باللامبالاة نفسها إلى المكان الذي تركناه لتوّنا. ركبنا الباص. ولم يكفّ رايمون، الذي بدا أنّه قد ارتاح، عن ممازحة ماري. شعرتُ بأنّها تعجبه. بيد أنّها لم تكد تجيبه البتّة. وبين الفينة والأخرى كانت تنظر إليه وتضحك.

نزلنا في ضاحية مدينة الجزائر. ولم يكن الشاطئ بعيداً عن محطّة الباص. غير أنّه كان ينبغي عبور نجد صغيرٍ يشرف على البحر ثمّ ينحدر صوب الشاطئ. كانت تملأ النّجد الصخور المُصفرّة والزنابق ناصعة البياض تحت زرقة السّماء التي كانت قد صارت غامقة. كانت ماري تستمتع وهي تبعثر بتلات الأزهار بضربات من حقيبة القماش المشمّع. ومشينا خلل صفوف الفيلاّت ذات الحواجز الخضراء أو البيضاء، وكان بعضها متوارياً بشرفاته خلف أشجار الطرفاء، بينما تبرز الأخرى عارية وسط الأحجار. وقبل بلوغ حافة النّجد، كان بالإمكان رؤية البحر الساكن، وأبعد قليلاً رأس البرّ الهائل المسترخي في الماء الصافي. وتناهى إلينا صوت محرّك خفيفٍ صاعداً في الجوّ الهادئ. ثمّ لاح لنا، من بعيد، زورق صيد صغير يتقدّم، دون أن يثير الانتباه، على صفحة البحر السّاطعة. قطفت ماري بعض زهور السوسن النابتة بين الصخور[1]. ومن

---

(١) حرفياً، السوسن الصخري، بيد أنّي لم أجد نوعاً من السوسن بهذا الاسم، فلعل الأمر لا يعدو صياغة شعرية لألبير كامو.

على المنحدر الهابط صوب البحر رأينا أنّ ثمّة من بدؤوا السّباحة.

كان صديق رايمون يسكن في كوخ بحري خشبيّ على مقربة من الشاطئ. كان المنزل متكئاً على صخور، وكانت الأعمدة التي تدعمه قد صارت مغمورة بالماء. عرّفنا رايمون على بعضنا البعض. يدعى صديقه ماسون. وهو رجل طويلٌ، عظيم الجسم والكتفين، أمّا زوجته فقصيرةٌ مستديرة القدّ ولطيفة، ولهجتُها باريسية. وقد طلب منّا على الفور أن نتصرّف بأريحيّة، وأخبرنا أنّ ثمّة تشكيلة أسماك قد اصطادها بنفسه هذا الصّباح. أفصحت له عن مدى إعجابي بمنزله. فأخبرني أنه يأتي إلى هنا كلّ سبت وأحد، وكلّ أيام عطله. وأضاف: «إنّي على وفاق تام مع زوجتي». وكانت امرأته تضحك مع ماري. وربما كانت تلك المرة الأولى التي فكّرت فيها جدياً في أنّي مقبل على الزّواج.

أراد ماسون أن يسبح، لكن زوجته ورايمون لم يرغبا في ذلك. نزلنا إلى البحر ثلاثتنا، وما إن وصلنا حتّى ارتمت ماري في الماء. أمّا أنا وماسون فقد تروّينا قليلاً. كان هو يتكلّم ببطء، وانتبهت إلى أنّه كان معتاداً على أن ينهي ما يقوله بـ: «بل، وأزيد على ذلك»، حتى حين لا يضيف شيئاً إلى معنى الجملة التي قالها. وعن ماري، قال لي: «إنّها مذهلة، بل وقد أزيد على ذلك، إنّها جميلة». ثمّ ما عدت ألقي بالاً لهذه العادة، إذ

انشغلت باختبار الفائدةِ التي تمنحني الشّمسُ. بدأت الرّمال تصير ملتهبة تحت أقدامنا. كتمت قليلاً بعدُ رغبتي في نزول الماء، لكنّ المطاف انتهى بي إلى أن قلت لماسون: «أوَ ننزل؟»، وارتميت، بينما دخل هو الماء على مهل، ثمّ ارتمى حين غاصت قدماه. كان يسبح على صدره وبطريقة سيّئة، حتّى أنّي تركته لألحق بماري. كان الماء بارداً، وسرّني أن أسبح. توغّلنا، أنا وماري، وكنّا نحس نفسينا متناغميْن في حركاتنا وفي ابتهاجنا.

وإذ بلغنا عرض البحر استلقينا على الظهر، وعلى وجهي الموجّه نحو السماء كانت الشمس تجفّف آخر قطرات الماء السائلة في فمي. لمحنا ماسون يغادر الماء كي يستلقي تحت الشمس. وكان يبدو من بعيد عظيم الهيئة. ودّت ماري أن نسبح معاً، فأتيتها من خلف، حتى أستطيع تطويق خصرها، وكانت تحرّك بجهد يديها بينما أساعدها بضربات قدميّ في الماء. وظلّ صوت الخبط الخفيض في الماء يلاحقنا طيلة الصباح، إلى أن شعرت بنفسي متعباً. آنذاك خلّفت ماري ورائي، وعدت أدراجي سابحاً بانتظام وأنا أتنفّس بعمق. وعلى الشاطئ استلقيت على بطني قرب ماسون، ووضعت وجهي على الرمال. وقلت له إنّ «الأمر كان ممتعاً»، وكان يشاطرني الرّأي. وبعد ذلك بقليل عادت ماري. استدرت كي أراها تتقدّم نحونا. كان الماء المالح يلتصق بكامل جسدها، وقد عقدت شعرها إلى الخلف. استلقت

لصق جسدي، وجعلتني الحرارتان؛ حرارة جسدها وحرارة الشمس، أغفو قليلاً.

هزّتني ماري، وأعلمتني أنّ ماسون قد عاد إلى منزله، إذ حان وقت الغذاء. قمت على الفور لأنّي كنت جائعاً، بيد أنّ ماري قالت لي إنّي لم أقبّلها منذ الصّباح. كانت محقّة، على أنّي كنت أشتهي ذلك. قالت لي: «تعالَ ننزل إلى الماء». ركضنا نعترض أولى الموجات الصغيرة. جدّفنا بذراعينا قليلاً، ثمّ التصقت بي. أحسست بساقيها يطوّقان ساقيّ، فاشتهيتها.

ولمّا كنّا عائدين، أخذ ماسون ينادينا. قلت له إنّي كنت جائعاً جداً، وعلى الفور صرّح لزوجته بأنّي أعجبه. كان الخبز شهياً، والتهمت حصّتي من السّمك. ثمّ قُدّم لنا لحم وبطاطس مقلية. كنّا نأكل جميعاً دون أن نتكلّم. وكان ماسون يشرب النبيذ كثيراً، ولا يكف عن صبّه لي. وإذ حانت لحظة شرب القهوة، كنت أحسّ رأسي ثقيلاً ودخّنت كثيراً. وخطّطنا، أنا ورايمون وماسون، لقضاء شهر آب/أغسطس على الشاطئ، مشتركين في النّفقات. قالت لنا ماري بغتة: «أوَ تعلمون كم الساعة الآن؟ إنّها الحادية عشرة والنّصف». ودهشنا جميعاً، بيد أنّ ماسون أخبرنا أنّنا تناولنا الغذاء باكراً، وأنّ هذا الأمر طبيعي، لأنّ ساعة تناول الغذاء هي الساعة التي نشعر فيها بالجوع. ولست أدري ما الذي أضحك ماري في هذا الكلام. لعلّها أفرطتْ في الشرب قليلاً.

وعندئذ سألني ماسون عمّا إذا كنت أرغب في القيام بجولة على الشاطئ بصحبته. قال لي: «إنّ زوجتي تأخذ قيلولة دائماً بعد الغذاء، فيما لا أحبّ أنا ذلك. ينبغي أن أتمشى. وأقول لها دوماً إنّ هذا أفضل للصحّة. لكن، في نهاية الأمر، ذاك شأنها». أفصحت ماري عن نيتها في البقاء بالمنزل لمساعدة السيّدة ماسون في غسل الأواني. فقالت الباريسية إنّ هذا الأمر يتطلّب طرد الرّجال خارجاً. ونزلنا ثلاثتنا.

كانت أشعّة الشمس تسقط رأساً على الرّمال، وكان انعكاس وهجها على صفحة البَحر لا يطاق. وما عاد ثمّة أحد على الشاطئ. وفي المنازل البحرية التي كانت تَحُفُّ النجدَ وتشرف على البحر كنّا نسمع صوت الصّحون والشوكات والسكاكين. وكنّا لا نكاد نتنفّس، ونحن نسير وسط حرارة الأحجار البارزة من الأرض. ولبدء الحديث، تكلّم رايمون وماسون عن أشياء وعن أناس كنت أجهلهم. فهمت أنّهما كانا يعرفان بعضهما منذ فترة طويلة، بل إنّهما، في زمن مّا، عاشا معاً. اتّجهنا صوب الماء ومشينا بمحاذاة البحر. ومن حين لآخر كانت تأتي موجة تفوق باقي الموجات طولاً، وتبلل نعالنا القماشية. وما كنت أفكّر في شيء، لأنّي كنت نصف غافٍ بسبب الشمس التي تضرب رأسي العاري.

في تلك اللحظة، قال رايمون لماسون شيئاً لم أسمعه. بيد

أنّي لمحت في الآن نفسه، عند طرف الشاطئ، وبعيداً منّاً، عربييْن يرتديان بزّة الوقّاد، وكانا آتيين شطرنا. نظرت إلى رايمون، فقال لي: «إنّه هو». وتابعنا سيرنا. تساءل ماسون، كيف استطاعا ملاحقتنا حتّى هنا. خمّنت أنّهما قد رأيانا نركب الباص حاملين حقيبة الاصطياف، لكنّي لم أقل شيئاً.

كان العربيان يتقدّمان على مهل، وكانا قد صارا قريبين أكثر. لم نغيّر سرعتنا، لكن رايمون قال: «إذا ما حدث عراك، ستتكفّل أنت يا ماسون بالرّجل الآخر. بينما أتكفّل أنا بخصمي. أمّا أنت يا مورسو، فعليك بآخر، إن حضر». قلت: «حسناً»، ووضع ماسون يديه داخل جيبيه. وكان الرّمل السّاخن قد صار يبدو لي الآن أحمر. وكنّا نتقدّم بخطوات متساوية صوب العربيين. وبدأت المسافة بيننا تتقلّص بانتظام. وإذ صرنا على بعد خطوات من بعضنا، توقّف العربيان. أبطأنا، أنا وماسون، خطونا. بينما اندفع رايمون رأساً صوب خصمه. لم أسمع جيداً ما كان يقول له، بيد أنّ الآخر تظاهر بأنّه يوجّه له ضربة بالرأس. حينئذ ضربه رايمون ضربة أولى، ثمّ نادى ماسون. قصد ماسون الشخص الذي عيّنه رايمون له، وضربه ضربتيه بكامل ثقله. سقط العربي على وجهه في الماء، وظلّ كذلك للحظات، تصعد الفقاقيع حول رأسه إلى سطح الماء. وأثناء ذلك كان رايمون يضرب أيضاً، وصار وجه خصمه دامياً.

استدار رايمون نحوي وقال: «سترى ما سوف يناله». صرخت فيه: «اِنتبه إلى المدية!»، لكنّ ذراعه كانت قد انفتحت وفمه قد جُرح.

وثب ماسون وثبة إلى الأمام. لكنّ العربي الآخر، كان قد نهض واحتمى خلف رفيقه المسلّح. لم نجرؤ على التقدّم. وتراجعا ببطء، دون أن يغيّبانا عن ناظريهما، وهما يمنعان حركتنا بمديتهما. وإذ ألفيا نفسيهما على مسافة كافية منّا، لاذا مسرعيْن بالفرار، بينما ظللنا نحن مسمّرين تحت وهج الشّمس، ورايمون يشدّ على ذراعه النّازفة.

قال ماسون، على الفور، إنّ ثمّة طبيباً يُمضي أيام آحاده على النّجد. رغب رايمون في الذهاب تواً. لكنّه كلّما تكلّم كان الدم النازف من الجرح يحدث فقاعات داخل فمه. أسندناه وعدنا إلى المنزل بأسرع ما نستطيع. وهناك قال رايمون إنّ جروحه سطحية، وبوسعه الذهاب لرؤية الطبيب. وذهب برفقة ماسون، بينما بقيت أنا لأشرح للمرأتين ما وقع. أجهشت زوجة ماسون بينما شحبت ماري. وكان يزعجني أن أشرح لهما الأمر. وانتهى بي المطاف إلى أن سكتت ودخّنت وأنا أنظر إلى البحر.

حوالي الساعة الواحدة والنّصف عاد ماسون برفقة رايمون. كانت ذراعه مضمّدة، وعلى جانب فمه شريط لاصق. أخبره

الطبيب أنّ الأمر بسيط، لكنّه كان شاحباً. وحاول ماسون الترويح عنه. لكنّه ظلّ صامتاً لا يتكلّم. وحين أراد أن ينزل البحرَ، سألته أين ينوي الذّهاب. أجابني أنّه يودّ استنشاق بعض الهواء. قلنا له أنا وماسون إننا سنرافقه، فثارت ثائرته وشتمنا. فقال ماسون إنّه لا يجب معارضته. لكنّي تبعته رغم ذلك.

مشينا طويلاً على الشاطئ. وصارت الشمس آنذاك ماحقة. وكانت أشعّتها تتكسّر قطعاً قطعاً على الرمال والبحر. وخيّل إليّ أنّ رايمون يعلم أين تقوده خطواته، لكنّه كان انطباعاً خاطئاً بلا ريب. وعند أقصى طرف الشاطئ بلغنا نبع ماء يسيل على الرّمل، خلف صخرة عظيمة. وهناك صادفنا العربيين. وكانا مستلقيين ببزّتيهما الدبقتين. كانا يبدوان هادئين وشبه مسرورين. ولم يبدّل مجيئنا شيئاً من ذلك. وذاك الذي ضرب رايمون كان يحدّق فيه دون أن ينبس بشيء. أمّا الأخر فكان يعزف على قصبة صغيرة، ويردّد بلا توقّف، ناظراً إلينا بطرف عينه، النوتات الثلاث التي تسمح بها آلته.

وطيلة هذا الوقت، لم يكن ثمّة شيء غير تلك الشّمس وذاك الصّمت، يخالطهما خرير النّبع الخفيف، وصوت النوتات الثلاث. ثمّ مدّ رايمون يده إلى حامل مسدسه، في حين بقي الآخر ساكناً، وظلاّ يتبدلان النّظر. انتبهت إلى أن أصابع قدمَيْ عازف النّاي، كانت متباعدة جداً. وبدون أن يغيّب رايمون

خصمه عن ناظريه، سألني: «أ أقتله؟». قدّرت أنّي لو قلت له كلاّ، سيستثار من تلقاء نفسه ويقتله بلا ريب. فاكتفيت بأن قلت له: «هو لم يكلّمك بعد. سيكون أمراً شنيعاً أن تطلق عليه الرّصاص هكذا». وكنا ما نزال نسمع خرير الماء الخافت وصوت النّاي الصادحين وسط السكون والحرارة. فقال رايمون: «سأسبّه إذاً، وحين يردّ عليّ، سأقتله». أجبته: «هو ذا. لكن إذا لم يستلّ مديته فلن يكون بإمكانك إطلاق النّار عليه». بدأ رايمون يستثار قليلاً. أما الآخر فكان ما يزال يعزف، وظلّ هو وصديقه يتابعان كلّ حركة تصدر عن رايمون. قلت له: «كلاّ. واجهه رجلاً لرجل، وأعطني سلاحك. وإذا ما تدخّل صديقه أو استلّ سكينه سأقتله».

وحين سلّمني رايمون مسدّسه انزلقت الشمس فوقنا. على أنّنا بقينا ساكنين لا نتحرّك، وكأنّما انغلق العالم حولنا. كنّا ننظر بعضنا إلى بعض، دون أن نخفض أبصارنا، وقد توقّف كلّ شيء هنا، ما بين البحر والرمال والشمس، والصّمت المضاعف؛ صمت النّاي والماء. وفكّرت آنذاك أنّنا أمام أمرين، فإمّا أن نطلق النّار أو لا نطلقها. بيد أنّ العربييْن تراجعا القهقرى بغتة، وذابا خلف الصخرة. فعدت أدراجي ورايمون. وكان يبدو أكثر انفراجاً، وتحدّث عن باص العودة.

رافقته حتى باب المنزل، وبينما كان يرتقي السّلم الخشبي

بقيت مسمّراً أمام أولى الدرجات. كان رأسي يضجّ من الشّمس، وعجزت عن بذل المجهود المطلوب للصعود إلى الطابق، والحديث إلى المرأتين. بيد أنّ الحرارة كانت من القسوة لدرجة أنّه كان يشقّ عليّ المكوث ساكناً تحت الشواظ الأعمى الهاطل من السّماء. أن أبقى هنا، أو أن أرحل، سيّان. وبعد برهة، عدتُ إلى الشاطئ وبدأت المسير.

وكان ثمّة الوهج الأحمر نفسه. وعلى الرّمال، كان البحر يلهث بكلّ ما أوتيت أمواجه الصغيرة من أنفاس سريعة ومختنقة. كنت أمشي الهوينى شطرَ الصخور، وكنت أحسّ جبيني ينتفخ تحت أشعة الشمس. وكانت تلك الحرارة تثقل عليّ، وتعيق خطوي. وكلّما أحسست لفحها الحارّ على وجهي أصرّ أسناني وأعقد قبضتيّ داخل جَيبي سروالي، وأستنفر كامل جسدي لأنتصر على الشمس وعلى هذا الإحساس الكثيف بالثمالة الذي تتركه فيّ. وكلّما وخزني سيف من السيوف الطالعة من الرّمال أو من محارة بيضاء أو شظية زجاج، كان فكايَ يتشنّجان. ومشيت طويلاً.

كانت تلوح لي من بعيد كتلة الصخر المعتمة التي تلّفها هالة من ضوء وغبار بحر تغشى الأبصار. وكنت أفكّر في النبع المنعش خلف الصخرة. وأتوق إلى همس مائه، وأود التخلص من الشمس ومن الجهد المضني ونحيب النساء. كنت راغباً، في

نهاية الأمر، في أن ألوذ بالظل وراحته. بيد أنّي حين دنوت، أبصرت خصم رايمون وقد عاد.

كان بمفرده. وكان يستريح مستلقياً على ظهره وشابكاً يديه تحت رقبته، حامياً جبينه بظلّ الصخرة، وتاركاً جسده للشمس. وكان الدّخان يتصاعد من زرقة بزّته في الحرارة. كنت مشدوهاً قليلاً، فبالنّسبة لي كانت المسألة قد طُويت، وقد وصلت ها هنا دون نيّة مبيّتة.

وما إن رآني حتّى هبّ واقفاً، ووضع يده في جيبه. وتلقائياً، شددت أنا على مسدس رايمون في سترتي. حينئذ تراجع للخلف مجدّداً، لكن دون أن يُخرج يده من جيبه. كنت بعيداً عنه، بعيداً بعشرة أمتار تقريباً. وكنت أستشّف نظرته، من حين لآخر، خلَل أجفانه نصف المقفلة. بيد أنّ صورته، في الغالب الأعمّ، كانت تتماوج أمام عينيّ، في هذا الجوّ المتوهّج. وقد صار هدير الأمواج أشدّ كسلاً، وأكثر انتشاراً ممّا كان عليه عند الزوال. وكانت الشّمس نفسها، والوهج نفسه فوق الرّمال يمتدّ ها هنا. فقد مضت ساعتان، منذ توقف النّهار عن المضيّ، مضت ساعتان منذ ألقى النّهار مرساته في محيط المعدن المغليّ. وعند الأفق، مرّت باخرة صغيرة، واستطعت أن استشفّها بقعةً سوداءَ على مدّ بصري، إذ لم أكفّ عن التحديق في العربيّ.

فكّرت في أنّ نصف دورة أقوم بها تكفي لينتهي كلّ شيء.

بيد أنّ بحراً بأكمله، بحراً راجفاً من الشمس، كان يحتشد خلفي. تقدّمت خطوات صوب النّبع. ولم يتحرّك العربيّ. وبالرّغم من ذلك كان ما يزال بعيداً بما يكفي. ولربّما بسبب الظلال على وجهه، بدا وكأنّما هو يضحك. انتظرتُ. بدأ لهيب الشمس يحرق خديّ، وشعرت بقطرات العرق تتجمّع عند حاجبيّ. كانت نفس شمس ذاك النّهار الذي دفنت فيه أمّي. ومثلما حدث لي في ذاك اليوم، صار جبيني يؤلمني، وأخذت كلّ عروقي تنبض تحت جلدي. وبسبب هذا الالتهاب، الذي ما عدت أحتمله، تحرّكت حركة واحدة إلى الأمام. كنت أعلم أنّه تصرّف غبيّ، وأنّ خطوة إلى الأمام، لن تخلّصني من الشّمس. لكنّي خطوت خطوة، خطوة واحدة فحسب إلى الأمام. وهذه المرّة، ودون أن ينهض، استلّ العربي مديته، وعرضها أمامي تحت وهج الشّمس. انعكس الضوء على المعدن، وكان الأمر أشبه بشفرة طويلة لمّاعة تضرب جبيني. وفي اللّحظة نفسها سال العرق المتجمّع عند حاجبيّ دفعة واحدة على جفنيّ وغطّاهما بحجاب دافئ وسميك. وعميَت عيناي خلف ستار الدموع والملح. وما عدت أحسّ غير صنوج الشّمس فوق جبيني، وغير ذاك البريق، الذي لا أكاد أميّزه؛ بريق حدّ المدية المُشهرة أمامي. كان ذاك السيف الملتهب يقضم جفنيّ ويخترق عينيّ المتألمتين. وآنذاك ترنّح كلّ شيء. زفر البحر لفحة كثيفة حرّى.

وخيّل إليّ أنّ الشمس قد انفتحت على مصراعيها، لترسل مطراً من نارٍ. توترّ كياني كلّه، وشدّت يدي على المسدّس. انفلت الزنادُ، ولامست سبّابتي عقب المسدّس الخشبيّ الصقيل، وإذ ذاك، في غمرة الصوت الجافّ والمصمّ، في الآن نفسه، ابتدأ كلّ شيء. نفضتُ عنّي العرق والشمس. وأيقنت أنّي قد دمّرت توازن النّهار، وأتلفت الصمت الاستثنائي الذي كان ينعم به شاطئ كنت سعيداً فيه. عندئذ أطلقت أربع طلقات أخرى، في جسد ساكن، جسد كانت تخترقه الرصاصات دون أن يظهر عليه أثرها. وكان الأمر أشبه بأربع طرقات خفيفة أطرقها على باب الشّقاء.

الفصل الثاني

١

عَقِبَ توقيفي مباشرة، تمّ استنطاقي مرّات عدّة. بيد أنّها لم تغْدُ استجوابات عن الهوية ولم تدم طويلاً. في المرّة الأولى، بالمخفر، بدت قضيةً غير ذات شأن، ولا تهم أحداً. لكن، بعد ذلك بثمانية أيام، نظر إليّ قاضي التحقيق بفضول. بيد أنّه في البداية لم يفعل أكثر من سؤالي عن اسمي ومحلّ إقامتي ومهنتي، وتاريخ ميلادي ومكانه. كان يرغب في معرفة ما إذا كنت قد عيّنت محامياً للترافع عنّي. أقررت بأني لم أفعل ذلك، وسألته عمّا إذا كان من الضروري جداً تنصيب محامٍ. سألني: «لمَ؟». أجبته بأنيّ أرى قضيّتي بسيطة غاية البساطة. فابتسم قائلاً: «هذه أيضاً وجهة نظر. بيد أنّ القانون هنا. وإذا لم تكن قد اخترت محامياً، فإنّ المحكمة ستنصب واحداً للترافع عنك» فقدّرت أنّ الأنسبَ أن تتولّى العدالة أمر هذه التفاصيل. وأفصحت له عن ذلك. فصادق على كلامي، وخلص إلى أنّ القانون قد أخذ الآن مجراه بالفعل.

في بداية الأمر لم آخذه على محمل الجدّ. لقد استقبلني في

حجرة مسدلة الستائر. وكان على مكتبه مصباح واحد ينير الأريكة حيث أجلَسني، بينما ظلّ هو متوارياً في الظّل. وكنت قد قرأت من قبل في بعض الكتب وصفاً شبيهاً بهذه الوضعية، فبدا لي الأمر كلّه مجرّد لعب. وكان الأمر على خلاف ذلك بعد محادثتنا، فقد نظرت إليه فَرأيت رجلاً ذا ملامح دقيقة، وعينين زرقاوين غامقتين، طويل القامة، وذا شارب رمادي طويل، وشعر غزير يكاد يكون أبيض. بدا رجلاً متعقلاً جداً، وعموماً بدا لطيفاً، بالرغم من بعض التشنجات العصبية التي كانت تشدّ فمه. حتّى أنّي، حين هممت بالخروج، كدت أمدّ له يدي، لكنّي تذكرت في الوقت المناسب أنّي قد قتلت رجلاً.

وفي اليوم الموالي أتى محامٍ لزيارتي بالسجن. كان قصيراً ومدوّر الجسم، وشعره مصفوف بعناية. وعلى الرغم من الحرّ (إذ كنت أرتدي قميصاً قصير الكُمّين)، كان يرتدي بذلة غامقة اللون، وقميصاً بياقة منشّاة، وربطة عنق غريبة الشّكل، مخطّطة خطوطاً عريضة سوداء وبيضاء. وضع على سريري المحفظة التي كان يتأبّطها، ثمّ عرّفني بنفسه، وقال إنّه قد درس ملفي. وألفى قضيّتي معقّدة، بيد أنّه لا يشكّ في تحقيق النجاح، إذا ما وثقت به. شكرته، فقال لي: «لنطرُق صُلب الموضوع».

جلس على السرير وشرح لي أنّهم قد تحرّوا عن حياتي الخاصّة. وعرفوا أنّ أمّي قد توفيت مؤخراً، في مأوى المسنّين.

وقد أُجريَ تحقيق في مرِنغو. وعَلِم المحقّقون أنّي «أبديت بروداً» يوم دُفنت أمّي. «أوَ تفهمُ، إنّه ليزعجني أن أسألك هذا الأمر. بيد أنّه من الأهمية بمكان. وسيكون دليلاً دامغاً يدينك، ما لم أجد ما أردُّ به». كان يَنشد مساعدتي. سألني إذا ما كنت قد شعرت بالحزن يومئذ. أدهشني هذا السّؤال، وبدا لي أنّي كنت لأنزعج كثيراً لو كنت أنا من يطرحه. غير أنّي أجبته بأنّي فقدت إلى حدٍّ مّا عادة مساءلة ذاتي، وصار من الصعب عليّ إجابته. لا شكّ في أنّي كنت أحبّ أمّي كثيراً، لكنّ هذا الأمر لا يعني شيئاً. فما مِن كائن سويّ إلا رغب، بدرجة أو بأخرى، في موت من يحبّهم. عند هذا الحدّ قاطعني المحامي، وبدا شديد الهياج. وجعلني أعده بأن لا أكرر هذا الكلام، أثناء جلسة الاستماع أو على مسمع قاضي التحقيق. ولكنني شرحت له أنّني ذو طبع خاصّ، بحيث إنّ حاجاتي الجسدية عادةً ما تشوّش عليّ عواطفي. فيوم دفنتُ أمي كنت تعباً جداً وكانت بي حاجة للنوم. بحيث إنّي ما أحطتُ علماً بما كان يجري حولي. وما أستطيع قوله، بثقة، هو أنّي كنت لأفضّل لو أنّ أمّي لم تمت. بيد أنّ محامِيَّ بدا غير مسرور. وقال لي: «إنّ هذا غير كافٍ».

فكّر، ثمّ سألني إذا ما كان يستطيع القول بأنّي في ذلك اليوم سيطرتُ على مشاعري الطبيعيّة. قلت له: «كلاّ، لأنّ هذا غير صحيح.». نظر إليّ بطريقة غريبة، وكأنّما كنت أثير اشمئزازه

قليلاً. وقال لي بنبرة تكاد تكون عنيفة إنّه سيتمّ، في كلّ الأحوال، الاستماع إلى مدير المأوى وموظفيه، كشهود، وقد «يورّطني هذا الأمر شرّ ورطة». نبّهته إلى أنّ لا علاقة لهذه القصّة بقضيتي، إلا أنّه اكتفى بالقول إنّ من الظاهر أنّي لم يسبق لي التعامل مع العدالة.

وانصرف تعلو وجهه مسحة انزعاج. وددت لو أستبقيه، لو أفصح له عن رغبتي في خطب ودّه، ليس سعياً إلى أن يدافع عنّي دفاعاً أفضل، لكن بصورة تلقائية، إن جاز التعبير، ولا سيّما بعد أن لاحظت أنّي أزعجه. فهو لم يكن يفهمني، وكان شيئاً مّا يلقي عليّ باللائمة. وانت تستبدّ بي الرّغبة في أن أؤكد له أنّي كنت مثل جميع النّاس، قطعاً مثل جميع النّاس. بيد أنّ كلّ ذلك، في الواقع، كان بلا قيمة، وعدلتُ عنه بدافع الكسل.

بعد ذلك بأيام قليلة تمّ اقتيادي مرّة أخرى للمثول أمام قاضي التحقيق. كانت الساعة الثانية بعد الزوال، وهذه المرّة كان مكتبه مفعماً بضوء تُخفّفُ وهجَه نوعاً ما ستارةُ قماش. وكان الجوّ حاراً. طلب منّي الجلوس، وبلباقة مبالغ فيها، أخبرني أنّ محاميّ «بسببِ طارئٍ مّا» لم يستطع الحضور. غير أنّ لي الحقّ في أن لا أجيب عن أسئلته، وأن أنتظر حتّى يكون باستطاعة محاميّ الحضور معي. أجبته أنّ بمكنتي الإجابة عن أسئلته

بمفردي. ضغط زراً على الطاولة بأصبع واحد. عندئذ دخل كاتب شاب، واتخذ مجلسه لصق ظهري تقريباً.

إِسترخينا على مقعدينا وبدأ التحقيق. أخبرني بدءاً أنّي أوصف بكوني شخصاً ذا طبع صموت ومنغلق على ذاته، وأراد معرفة رأيي بهذا الأمر. أخبرته: «إنّي لا أجد دوماً شيئاً ذا أهمية أقوله، فأصمت». إِبتسم، مثلما فعل أوّل مرّة، وصادق على كون السّبب الذي قدّمته أفضل الأسباب. ثمّ أضاف قائلاً: «ثمّ إنّ هذا الأمر غير ذي شأن». صمتَ، ونظر إليّ، ثمّ استقام فجأة في جلسته، ليقول لي بسرعة: «ما يهمّني، هو أنت». لم أفهم قصده من هذا الكلام، ولم أحر جواباً. أضاف: «ثمّة أشياء لا أستطيع إدراكها في تصرّفك. وأنا متأكد من أنك ستعينني على فهمها». أخبرته أنّ كل شيء كان في غاية البساطة. استعجلني إعادةَ رسم مسار يومي. فأعدتُ رسم ما كنت قد حكيته له من قبلُ: رايمون، والشاطئ، والسّباحة، والشّجار، والشاطئ مرّة أخرى، والنّبع الصغير، والشّمس، وطلقات المسدّس الخمس. وعند كلّ جملة أنطقها كان يقول «حسناً، حسناً». وعندما بلغتُ لحظةَ الجسد المسجّى صادق قائلاً «طيّب». أمّا أنا فقد أتعبني تكرار الحكاية نفسها، وأخالني ما تكلّمت قطّ بهذا القدر من قبل.

بعد فترة صمت، قام وقال لي إنّه يريد مساعدتي، وإنّني أثير

اهتمامه، وإنّه سوف يتمكّن، بعون الرّب، من فعل شيء لصالحي. بيد أنه قبل ذلك ما زال يرغب في طرح بعض الأسئلة عليّ. ودون مواربة سألني إذا ما كنت أحبّ أمّي. أجبته «أجل، مثل جميع النّاس»، ولعلّ كاتب العدل، الذي كان حتى هذه اللّحظة يضرب بانتظام على آلته، قد أخطأ الملامس/الحرف، إذ ارتبك وكان عليه الرّجوع إلى الخلف. ومرّة أخرى، دونما منطق ظاهر، سألني القاضي إذا ما كنت قد أطلقت الطلقات الخمس تباعاً. فكّرتُ، ثمّ قلت إنّي أطلقت رصاصةً واحدة في البداية، ثمّ بعد ذلك بلحظات أطلقتُ الأربع الباقية. سألني عندئذ «ولمَ انتظرتَ مدّة، بين الطلقة الأولى والطلقات الباقية؟». ومرّة أخرى لاح لي البحر الأحمر وشعرت بلهيب الشّمس فوق جبيني. بيد أنّي لم أقل شيئاً هذه المرّة. وطوال فترة الصّمت التي تلت ذلك بدا القاضي مهتاجاً. جلس، وأخذ يخلّل شعر رأسه، ثمّ وضع كوعيه على مكتبه، ومال قليلاً نحوي، وبنبرة غريبة قال لي: «لمَ؟ لمَ أطلقت الرّصاص على جسد مسجّى على الأرض؟». وهنا أيضاً لم أعرف بمَ أجيبه. مرّر القاضي يده على جبينه وقال بصوت فيه شيء من التحوير: «لماذا؟ ينبغي أن تخبرني. لماذا؟». وظللتُ مُمعِناً في صمتي.

نهض بغتة، وبخطوات واسعة قصَد طرف مكتبه وفتح دُرجاً من أدراج خزانة ملفات. وأخرج من الدرج صليباً نحاسياً شهره

وهو عائد في وجهي. وبصوت مغاير تماماً، صوت يكاد يكون مرتعداً، صرخ: «وهذا هل تعرفه؟» أجبته: «أجل، بالطبع». إذّاك قال لي، بسرعة وبحماس، إنّه مؤمن بالرّب، ومقتنع بأنّ ليس ثمّة إنسان مذنبٌ حدّ ألا يغفر له الربّ أبداً. لكن لكي يتمّ ذلك ينبغي على الإنسان أن يصير في توبته كالطفل ذي الروح الصافية القابلة أن تتلقى كلّ شيء. كان جسده بأكمله مائلاً على الطاولة. وكان يحرّك صليبه فوقي تقريباً. وصدقاً أقول، كنت قد تتبعت بشكل سيّئ تدليله؛ بدءاً لأنيّ كنت أحسّ الضّهد وكان مكتبه مليئاً بذباب كبير ظلّ يحطّ على وجهي، وأيضاً لأنّه كان يخيفني قليلاً. غير أنّي أقرّ، في الآن ذاته، أنّ زعمي هذا سخيفٌ، لأنّي، في نهاية المطاف، كنت أنا المجرم. واستمرّ رغم ذلك. ما فهمته منه تقريباً هو أنّ ثمة نقطة سوداء في اعترافي؛ كوني انتظرت برهة قبل أن أطلق الرصاصات التالية من مسدّسي. أما في ما عدا ذلك فالأمور جيّدة، لكن تلك النقطة بالضبط لا يستطيع فهمها. هممت بأن أقول له إنّه مخطئ في مكابرته: فهذه النقطة الأخيرة ليست بالغة الأهمية. بيد أنّه قاطعني، واستحثّني مرّة أخيرة، وهو منتصب بكامل قامته، وسألني إذا ما كنت أؤمن بالرّب. أجبته نافياً. فجلس غاضباً. قال لي إنّ هذا الأمر مستحيل، وإنّ كلّ النّاس يؤمنون بالرّب، بمن فيهم أولئك الذين يعرضون عن طريقه. كانت تلك قناعته، وإذا ما شكّ مرّة في هذه

القناعة فإن حياته تفقد معناها. صرخ فيّ: «أوَ تريد أن تصير حياتي بلا معنى؟». بالنسبة لي، لم يكن هذا الأمر يعنيني، وقد أخبرته بذلك. بيد أنه ظلّ يتقدّم عبر الطاولة، موجها المسيح نحو ناظري، ويصرخ بطريقة غير معقولة: «أنا مسيحيّ، وأطلبُ الصّفح عن ذنوبك من هذا. كيف أمكنك الظنّ بأنّه لم يتعذّب لأجلك؟». لاحظتُ أنّه بات يخاطبني بضمير المفرد، لكنّي كنت قد تعبت من الأمر برمّته. كانت الحرارة تزداد ارتفاعاً أكثر فأكثر. وككلّ مرّة أرغب في التخلّص من شخص لا أكاد أسمع ما يقوله اكتسيت هيئة من يقرّ بما يسمع. وأمام دهشتي أعلنها منتصراً: «أرأيتَ، أرأيتَ. أوَ لست تؤمن بالرّب، وستُرجع أمرك إليه؟». وبالطبع أجبت مرّة أخرى: «كلاّ»، فانهار على كرسيّه.

كان يبدو متعباً جداً. ظلّ صامتاً للحظة، بينما الآلة الكاتبة، التي لم تتوقف عن متابعة الحوار، كانت ما تزال منهمكة في تسطير الجمل الأخيرة. بعد ذلك نظر إليّ بتمعنّ وبشيء من الحزن. ثم همس: «ما رأيت قطّ روحاً أشدّ قسوة من روحك. كلّ المجرمين الذين عُرضوا عليّ بكوا أمام صورة الألم هذه». هممت بأن أقول إنّهم كانوا يفعلون ذلك، تحديداً، لأنّهم كانوا بالفعل مجرمين. لكنّي فكّرت في أنني كنت مثلهم أنا أيضاً. وكانت تلك فكرة يصعب عليّ تقبلها. عندئذ، قام القاضي، وكأنّه يشير إليّ بانتهاء التحقيق. واكتفى بأن سألني، وعلى وجهه

سيماء التعب نفسها، إذا ما كنت نادماً على ما اقترفت يدي. روّيت قليلاً، ثمّ قلت إنّي عوض الشعور بندم ندم حقيقي أشعر بشيء من الانزعاج. بدا لي أنّه لم يفهم قصدي. بيد أنّ الأمور، يومئذ، لم تذهب أبعد من ذلك.

فيما تلا ذلك رأيت القاضيَ غير ما مرّة. على أنّي كنت دائماً برفقة المحامي. وكان الأمر يقتصر على التدقيق معي بخصوص بعض اعترافاتي السابقة. أو أنّ القاضي كان يناقش إثباتات القضيّة، مع محاميّ. بيد أنّهما في الواقع ما كانا يعيرانني اهتماماً في تلك الأثناء. وشيئاً فشيئا أخذت نبرة التحقيقات تتغيّر. وبدا أنّ القاضي لم يعد مهتماً بقضيتي وأنّه قد بتّ في أمري شيئاً مّا. فلم يحدّثني مرّة أخرى عن الرّب، ولا رأيته منفعلاً انفعال لقائنا الأوّل. فكان أن صارت محادثاتنا وِدّية أكثر. بعض الأسئلة، وحديث قصير مع محاميّ، ويكون التحقيق قد انتهى. كانت قضيتي تأخذ مجراها الطبيعي، بحسب تعبير القاضي نفسه. وأحياناً، أيضاً، حين يتخّذ النقاش طابعاً عاماً، كان يتّم إشراكي فيه. وأخذت أستعيد إيقاع أنفاسي، فما من أحد يبدي شراً تجاهي، في هذا الوقت. لقد كان كلّ شيء من الطبيعية والتنظيم والوضوح حدّ أني تملّكني الانطباع السخيف بأنّي «فرد من العائلة». وإذ انصرمت الأحد عشر شهراً التي استغرقها التحقيق بوسعي أن أقول إنّي لأكاد أدهش من أنّني لم أبتهج قطّ في

حياتي، قدر بهجتي بتلك اللحظات التي كان يرافقني فيها القاضي حتى باب مكتبه، ويربّت على كتفي، قائلاً بنبرة ودٍ: «لقد انتهينا اليوم، يا سيدي المسيح الدجّال». وإذ ذاك يتمّ تسليمي لرجال الدرك.

٢

ثمّة أشياء ما أحببت قطّ الحديث عنها. وإذ دخلت السجن أيقنت بعد أيام معدودة أنّي لن أحبّ الحديث عن هذه الفترة من حياتي.

وفيما بعد، ما عدت ألقي بالاً إلى تلك الأشياء المنفّرة. وفي الواقع، لم أكن، إبّان أيامي الأولى، فعلاً في السجن: إذ كنت أنتظر، انتظاراً مبهماً، أن يعرض حادث جديد. وليس إلا بعد زيارة ماري الأولى والوحيدة أن بدأ كلّ شيء. فمنذ اليوم الذي تلقيت منها رسالة (كانت تقول إنّهم لن يسمحوا لها بزيارتي بعدُ، لأنّها لم تكن زوجتي)، منذ ذاك اليوم، شعرتُ أنّي في بيتي داخل زنزانتي، وأنّ حياتي توقفت هنا. في أوّل أيام توقيفي تمّ حبسي داخل غرفة كانت تحضن أصلاً العديد من المعتقلين، وكان أغلبهم عرباً. وضحكوا إذ رأوني. ثمّ سألوني عمّا اقترفته. أخبرتهم أنّي قتلت عربياً، فظلّوا صامتين. لكن بعد ذلك بمدّة أرخى الليل سدوله، فشرحوا لي كيف ينبغي أن أرتّب الحصيرة التي سأنام عليها. فبِطَيّ أحد طرفي الحصيرة يمكن أن نصنع

وسادة. وطيلة اللّيل ظلّ البقّ يجري فوق وجهي. بعد ذلك بأيام أُفردتُ في زنزانة، حيث كنت أنام على الأرضية الخشبية. وكانت لي جفنة مرحاض، وطشت حديدي. كان السجن يقع في أعلى المدينة، وخلَل نافذة صغيرة كان بوسعي رؤية البحر. وبينما كنت، ذات يوم، ممسكاً بقضبان الحديد، ماداً وجهي شطر النور، إذ دخل عليّ أحد الحرّاس وأخبرني أنّ ثمّة من جاء لزيارتي. فكّرتُ أنّها ماري. وبالفعل كانت هي.

واجتزت لبلوغ قاعة الزيارات ممراً طويلاً، ثمّ سُلماً، وفي الأخير بهواً ثانياً. دخلت حجرة فسيحة، مُضاءة بكوّة واسعة. كانت الحجرة موزعة إلى ثلاثة أجزاء، بواسطة سياجين يقسمانها طولاً. وبين السياجين مسافة، هي ما بين ثمانية وعشرة أمتار، تفصل الزوار عن المساجين. ولمحت ماري قبالتي، بفستانها المخطّط ووجهها الملوّح. وكان بجانبي حوالي عشرة مساجين، جلّهم عرب. كانت ماري محاطة بنساء موريات، وكانت محشورة بين زائرتين: عجوز قصيرة، مزمومة الشفتين، متشحة بالسواد؛ وامرأة بدينة، حاسرُ الشّعر، تتحدّث بصوت مرتفع، وينذّ عنها الكثير من الحركات. وبسبب المسافة الفاصلة بين الحاجزين كان الزوّار والمساجين مضطرين للحديث بصوت عالٍ جداً. وإذ دخلتُ أصابني شيء من الدوّار، بسبب الأصوات التي تتصادى على جدران الحجرة العالية العارية، والضوء الدّافق

الذي يسيل عبر الزجاج، ويغمر الحجرة. فزنزانتي كانت أكثر هدوءاً وأشدّ عتمة. واحتجت بضع ثوان حتّى أعتاد المكان. وبالرغم من ذلك انتهى بيَ الأمر إلى رؤية كلّ وجه بصفاء، إذ صارت الوجوه بارزة في وضح النّهار. انتبهت إلى وجود حارس، جالساً أقصى الممرّ الفاصل بين السياجين. أغلب المساجين العرب وذويهم كانوا يجلسون القرفصاء متقابلين. وهؤلاء ما كانوا يصرخون. وبالرغم من الجلبة كانوا يتمكنون من التفاهم، إذ يتكلمون بصوت خفيض. وكانت وشوشاتهم الصمّاء، المنطلقة من أسفل، تتجمّع، لتشكّل رجعاً متواصلاً من الحوارات التي تتقاطع فوق رؤوسهم. وقد استطعت ملاحظة كلّ ذلك بسرعة، وأنا أتقدّم نحو ماري. ماري التي التصقت بالسياج، كانت تبتسم لي بكلّ ما أوتيت من بأس. بدت لي جميلة جداً، بيد أنّي ما عرفت كيف أخبرها بذلك.

وقالت لي بصوت عالٍ جداً: « ـ إذاً؟

ـ إذاً، ها أنا ذا كما ترين.

ـ إنّك بخير. ألديكَ كلّ ما تحتاج إليه؟

ـ أجلّ، لديّ كلّ ما أحتاج إليه؟»

صمتنا معاً، وظلّت ماري تبتسم. وكانت المرأة البدينة تصرخ

باتجاه جاري، بَغلها بلا شك، رجلٌ ضخم الجثّة أشقر الشعر وصريح النظرة. كانا يتمّان حديثاً بدآه.

صاحت المرأة بملء صوتها:

«لم تُرد جين أخذه»

ردّ عليها الرّجل:

«نعم، نعم»

«أخبرتها أنّك ستستعيده حين يُطلق سراحك، لكنها رفضت أخذه.»

صاحت ماري من جهتها أنّ رايمون يبلغني سلامه، وأجبتها: «شكراً». لكنّ صوتي غطّاه صوت جاري، الذي كان يسأل: «هل هو بخير؟». ضحكت زوجته قائلة: «لم يكن يوماً، أحسن حالاً من الآن». أمّا جاري على اليسار، وهو شاب قصير ذو يدين رقيقتين فما كان يقول شيئاً. اِنتبهت إلى أنّه كان متقابلاً مع العجوز القصيرة، وأنّهما كانا يتبادلان نظرات مركّزة: لكنّي لم أجد الوقت لتأمّلهما أكثر، لأنّ ماري صاحت إليّ بأنّ لا بدّ من الأمل. أجبتها: «أجل»، وتأمّلتها في الآن ذاته، فاستبدّت بي الرّغبة في أن أضمّ كتفها من فوق فستانها. كنت أرغب في لمس هذا الثوب الناعم، وما كان لي علم بما يمكن للمرء أن يأمل أبعد من هذا الثّوب. غير أنّ ذلك ما أرادت ماري قوله، ولا

ريب، إذ كانت ما تزال ممعنة في الابتسام. وما عدت أرى غير بريق أسنانها وثنيات عينيها الخفيفة. صاحت مجدّداً: «سوف تخرج، وسوف نتزوّج!». أجبتها: «أتعتقدين ذلك؟». لكنّ الغرض الأساس من سؤالي كان مجرّد أن أقول شيئاً. قالت، حينئذ، ودوماً بصوت عالٍ وبسرعة، إنّهم سيطلقون سراحي، وسنسبح مرّات أخرى. بيد أنّ المرأة الأخرى كانت تصرخ من جانبها، وتقول إنّها تركت سلّة في مكتب الضبط، وبدأت تعدّد كلّ ما وضعته في سلّتها. وأوصت زوجها بالتأكد من وجود كلّ تلك الأشياء، لأنّ ثمنها باهظ. وكان جاري الآخر وأمّه ما يزالان يتبدلان النّظر. واستمرّت الوشوشة العربية أسفل رأسينا. بينما في الخارج بدت الأشعةّ وكأنّما تتكاثف وتتضخّم لصق الكوّة.

كنت أحسّ نفسي مريضاً شيئاً مّا، ووددت لو أرحل. كان الضجيج يتعبني. بيد أنّي، من جهة أخرى، رغبت في أن أنعم أكثر بحضور ماري. لستُ أدري كم من الوقت مرّ. حدّثتني ماري عن عملها، ولم تكفّ عن التبسّم. وكانت الوشوشة والصياح والأحاديث تتقاطع. الجزيرة الوحيدة حيث يخّيم الصمت، كانت هنا بجانبي، ممثّلة في هذا الشاب القصير وهذه العجوز اللذين يكتفيان بتبادل النظرات. ورويداً رويداً اقتيد العرب. وقد صمت الجميع تقريباً، ما إن خرجَ أوّلنا. اِقتربت العجوز من القضبان، وفي اللّحظة نفسها أومأ أحد الحراس بإشارة لابنها. فقال

الشاب: «وداعاً يا أمّي»، وأدخلت هي يدها خلال القضيبين كيما تلوّح له بتحية بطيئة ومطوّلة.

وانصرفتْ بينما دخل رجل، حاملاً قبّعة في يده، وأخذ مكانها. وتمّ إدخال أحد السّجناء، فتكلّم الرّجلان بحماس، لكن بصوت شبه خفيض، إذ عادت الحجرة إلى صمتها. ثمّ جاؤوا لإخراج جاري على اليمين، فقالت له امرأته دون أن تغضّ من صوتها، وكأنّما لم تلاحظ أنّ ما من حاجة بعدُ للصراخ: «اِعتنِ بنفسك جيداً وانتبه لها». ثمّ حان دوري. لوّحت لي ماري بإشارة قبلة. والتفتُ إليها قبل أن أغيب. كانت تقف بلا حراك، وجهها منسحق لصق القضبان، تعلوه الابتسامة الممزّقة المتوترة نفسها.

بعد ذلك، ببضعة أيام فقط كاتبتني. ومنذ تلك اللحظة بدأت الأشياء التي لم أرغب قطّ في الحديث عنها. وعلى العموم لا ينبغي المبالغة في شيء، فقد جرت الأمور معي بيسر أكثر ممّا حدث مع آخرين كثر. على أنّ أكثر ما كان يشقّ عليّ، أيام اعتقالي الأولى، هو أنّي كنت أحتفظ بأفكار رجل حرّ. ومَثَلُ ذلك الرّغبةُ التي كانت تجتاحني في أن أكون على شاطئ وأن أنزل صوب البحر. وإذ أتخيّل صوت أولى الأمواج تحت باطن قدمي، ودخول جسدي الماء وما أستشعره من خلاص في ذلك، كنتُ أحسّ فجأة مدى ضيق جدران زنزانتي. بيد أنّ ذلك لم يدم سوى بضعة أشهر. بعدئذ ما عاد لديّ سوى أفكار رجل مسجون.

وصرت أترقّب نزهتي اليومية في الباحة أو زيارة محاميّ. وكنت أحسن التصرف في ما تبقّى من وقتي. لا بل إنّي كثيراً ما فكّرت في أنّي لو وُضعت لأعيش في جذع شجرة جافّ دونما انشغال سوى التملّي في صفحة السّماء فوق رأسي لكنتُ اعتدت شيئاً فشيئاً على ذلك. ولكنت انتظرتُ مرورَ طيورٍ أو لقاء سحابات، مثلما انتظر هنا ربطات العنق الغريبة التي يضعها محاميّ، أو مثلما كنت أسلّي نفسي، في عالم آخر، منتظراً يوم السبت لأتمكّن من جسد ماري. غير أنّي، إذ أمعن التفكير، أرى أنّي لست داخل جذع شجرة جافّ. ثمةّ إذاً من هم أكثر تعاسة منّي. وتلك، في الواقع، إحدى أفكار أمّي، التي كانت تردّدها كثيراً، ومفادها أنّ الأمر ينتهي بنا إلى اعتياد أيّ شيء.

في ما عدا ذلك، لم أكن أُغرق عادة في التفكير. لقد كانت الشهور الأولى قاسية. بيد أنّ الجهد الذي كنت أبذله هو نفسه ما ساعدني على قضائها. مَثَلُ ذلك أنّ اشتهاء امرأة كان يعذّبني. وهذا الأمر طبيعي، إذ كنت شاباً. وما كنت أفكّر في ماري على وجه التخصيص. بيد أنّي كنت أفكر بشدّة في امرأة، في النّساء، في كلّ اللواتي عرفتهن، وفي كلّ الملابسات الّتي شهدت حبّي لهنّ. إلى حدّ أنّ زنزانتي كانت تمتلئ بكلّ الوجوه وكانت تعمّرها رغباتي. وكان هذا الأمر يفقدني التوازن من جهة؛ لكنه يقتل الوقت من جهة أخرى. وانتهى بي المطاف إلى أن كسبت ودّ

رئيس السّجانين الذي كان يرافق فتى المطبخ ساعة توزيع الوجبات. وكان هو من حدّثني، في البداية، عن النّساء. قال لي إنّها أولى الأمور التي يشتكي منها الآخرون. أخبرته بأنّي كنت مثلهم وبأنّي كنت أجد نظام التأهيل هذا غير عادل. فقال لي: «ـ لكنّا، نضعكم في السّجن لهذا الغرض بالذات.

ـ كيف، لهذا الغرض؟

ـ أجل. الحريّة. هو ذا المقصود. إنّنا نحرمكم من الحريّة».

وما كنت قد فكرت من قبل في هذا، فأقررت بالأمر. قلت له:

« ـ أجل، وإلا أين ستكمن العقوبة؟

ـ نعم، أنت تستوعب الأمور. أمّا الآخرون فلا. بيد أنهم ينتهون جميعهم إلى التنفيس عن أنفسهم بأنفسهم».

بعد ذلك انصرف السجّان.

كانت ثمّة مشكلة السجائر أيضاً. فلمّا دخلت السجن، أخذوا منّي حزامي، وخيوط حذائي وربطة عنقي، وكلّ ما تحويه جيوبي، خاصة السجائر. وإذ صرت في الزنزانة طالبت باستعادتها، فأخبروني أنّ الأمر ممنوع. كانت الأيام الأولى صعبة. ولعلّ ذلك أكثر ما دمّرني. كنت أمصّ قطع الخشب التي كنت أنتزعها من لوح فراشي. وكنت أُمضي اليوم كلّه في حالة

غثيان متواصل. وما كنت أفهم لمَ يحرمونني من هذا الشيء الذي لا يؤذي أحداً. فهمت فيما بعد أنّ ذلك أيضاً جزء من العقوبة. بيد أنّي كنت ساعتها قد اعتدت الحياة دون تدخين، وما عادت تلك عقوبة بالنسبة لي.

وإذا ضربنا صفحاً عن هذه المنغّصات فما كنت حقاً بائساً. فالمسألة كلّها كانت تُختصر، مرّة أخرى، في قتل الوقت. وقد خلصت إلى عدم الإحساس بالملل البتّة، مذ تعلّمت التذكّر. كنت أنهمك أحياناً وفي التفكير بغرفتي، وفي خيالي، كنت أنطلق من موضع لأعود إليه، مُحصياً في ذهني كلّ ما أصادفه في طريقي. في البداية كنت أنجز ذلك بسرعة. غير أنّي كلّما عاودت الأمر زاد الوقت طولاً بعض الشيء. إذ كنت أتذكّر كلّ قطعة أثاث وعلى كلّ قطعة أثاث، كلّ شيء موضوع فوقها. وبالنسبة لكل شيء كلّ تفصيل، وبالنسبة للتفاصيل نفسها كنت أتذكّر كلّ ما كان فيها من توشية أو صدع أو جانب تالف، وكذلك ألوانها ومكوّناتها. وفي الآن نفسه كنت حريصاً على ألاّ أضيع خيط جردي، وعلى أن أقوم بإحصاء شامل. لدرجة أنّي، بعد أسابيع معدودة، صار بوسعي أن أقضي ساعات لا أفعل فيها شيئاً غير إحصاء ما يوجد في غرفتي. هكذا، كلّما زدت إمعاناً في التفكير انبثقت الأشياء المنسية والمجهولة من ذاكرتي. وأدركت آنذاك أنّ رجلاً لم يعش سوى يوم واحدٍ من حياته

يستطيع أن يقضي مئة سنة في السجن؛ إذ سيكون لديه من الذكريات ما يكفيه كي لا يملّ. وبمعنى مّا، كان هذا الأمر مزيّة.

وكانت ثمّة أيضاً مسألة النوم. ففي البدء كنت أنام الليل نوماً مضطرباً، ولا أنام النهار البتّة. وشيئاً فشيئاً تحسّن نومي اللّيلي، وصرت أنام النهار أيضاً. وبوسعي أن أقول، إنّي في الشهور الأخيرة، صرت أنام من ست عشرة إلى ثماني عشرة ساعة في اليوم. فتبقى عندي ستّ ساعات أقتلها ما بين الوجبات والحاجات الطبيعية وذكرياتي، ثمّ قصّة التشيكوسلوفاكي.

فما بين فراشي ولوحة السرير وجدت جزءاً من جريدة يكاد يلتصق بالنسيج، وقد صار مُصفرّاً وشفّافاً. كان يروي حادثة، تنقصها البداية، لكن لابد أنها جرت في تشيكوسلوفاكيا. ذاك أنّ رجلاً غادر قرية تشيكية طلباً للاغتناء. وبعد خمس وعشرين سنة عاد وقد صار غنياً صحبة زوجته وابنه. وكانت أمّه وأخته تديران فندقاً في قريته الأصل. وحتّى يفاجئهما ترك زوجته وابنه في مبنى آخر، وذهب هو إلى فندق أمّه التي لم تتعرّفه حين دخل عليها. وللدعابة، أتته فكرة حجز غرفة. فأخرج نقوده. ومساءً قتلته أمّه وأخته بضربات مطرقة، حتّى تسرقاه، ثمّ رمتا جثّته في النّهر. وإذ طلع الصباح أتت زوجته وكشفت عن هوية المسافر، دون أن تدري. فشنقت الأم نفسها بينما ألقت الأخت بنفسها في بئر. لا بدّ أنّي قرأت هذه القصّة آلاف المرّات. من جهّة، كانت هذه

القصّة تبدو غير معقولة، لكنّها من جهة أخرى تبدو عادية. وعموماً، كنت أرى أنّ المسافر استحقّ شيئاً مّا خاتمته، وأنه لا ينبغي للمرء أن يمثّل أبداً.

هكذا، بتتالي ساعات النوم، والذكريات، وقراءة الحادث وتعاقب النور والعتمة، مرّ الزمن. وكنت قد قرأت أنّ الأمر ينتهي بالمرء، في السجن، إلى فقدان مفهوم الزمن. غير أنّ ذلك لم يكن ذا معنى كبير بالنسبة لي. وما فهمت، قطّ، كيف بوسع الأيام أن تكون في الآن نفسه طويلة وقصيرة. كانت بلا ريب أطول من أن تعاش، لكنّها كانت ممطوطة حدّ أنها تتراكم بعضها على بعض؛ كانت تفقد أسماءها. وحدهما كلمتا أمس وغداً ظلّتا تعنيان شيئاً بالنسبة لي.

وإذ أخبرني السّجان ذات يوم أنّي قضيت خمسة أشهر في السجن، صدّقته، بيد أنّي لم أفهمه. فبالنسبة لي كان اليوم نفسه يتكّرر في زنزانتي، دون توقف، وكنت أتابع العمل نفسه. ذاك اليوم، بعدما انصرف السّجان، تطلّعت إلى صورتي المنعكسة على آنية الحديد، فبدا لي أنّها تظلّ جادة، حتّى وأنا أحاول الابتسام في وجهها. حرّكت الآنية أمامي، وابتسمت، لكنّها احتفظت بالملمح نفسه؛ الملمح القاسي والحزين. وإذ ينصرم النّهار تحين الساعة التي لا أريد الحديث عنها، تلك السّاعة التي لا اسم لها، حيث يصّاعد كلّ ضجيج اللّيل من طوابق السّجن

جميعها، في موكب من الصّمت. دنوت من المنور، وعلى ضوء آخر الأشعّة، تأملت صورتي مرّة أخرى. كانت ما تزال جادّة. وأي غرابة في ذلك، ما دمت أنا نفسي كنت جاداً ساعتها؟ غير أنّي، في الآن نفسه، وللمرة الأولى منذ شهور استطعت أن أسمع بوضوح نبرة صوتي، تعرفت فيها تلك النبرة التي كانت ترنّ، منذ أيام طويلة، في أذنيّ، وأدركت أنّي طيلة هذه الفترة كنت أتكلّم وحدي. وتذكّرت آنذاك ما قالته الممرضة في جنازة أمي. أبداً، ليس ثمّة من منفذ، ولا أحد يستطيع أن يتخيّل كيف هي ليالي السجن.

٣

بوسعي القول، في حقيقة الأمر، إنّ الصيف قد خلف سريعاً الصيف. وكنت أعلم أنّه مع أولى بوادر ارتفاع الحرارة سيجدّ جديد في أمري. لقد كانت قضيّتي مسجلّة في الدورة الأخيرة بالمحكمة الجنائية، وكانت هذه الدورة ستنتهي في حزيران/ يونيو. وقد بدأت الجلسات في الوقت الذي كانت الشّمس في الخارج في أوجها. وكان محاميّ قد أكّد لي أنّ الجلسات لن تستمرّ أكثر من يومين أو ثلاثة. وأضاف قائلاً «في كلّ الأحوال، ستنظر المحكمة في قضيتك على عجل، فهي ليست أهمّ قضايا الموسم. ذاك أنّ ثمّة قضية قتل أبويّ، سينظر فيها، الآن، مباشرة بعد قضيتك». وفي السابعة والنّصف صباحاً، قدموا ليصطحبوني، وأقلّتني سيارة السجن إلى قاعة المحكمة. أدخلني الدركيان إلى حجرة صغيرة تفوح منها روائح الرطوبة. وانتظرنا جالسين قرب باب تتناهى إلينا من خلفه الأصوات والنداءات وضجة الكراسي، وجلبة بأكملها، ذكّرتني بتلك الاحتفالات التي كان يشهدها الحيّ، حيث كنّا بعد الحفلة الغنائية، نعيد ترتيب

القاعة حتّى يتسنّى لنا الرقص. أخبرني الدركيان بضرورة انتظار هيئة المحكمة، وقدمّ لي أحدهما سيجارة، لكنّي رفضتها. سألني بعد ذلك بلحظات، «إذا ما كنت مرتبكاً». أجبته نافياً. لا بل حتّى إنّه، من ناحية مّا، يثير اهتمامي رؤية محاكمة؛ إذ لم تسنح ليَ الفرصة من قبل لأشهد هذا. قال الدركي الآخر: «صحيح، بيد أنّ الأمر مُتعب في النهاية».

بعد برهة قصيرة، تردّدت رنّة صغيرة في القاعة. حينئذ، فكّوا أصفادي. وفتحوا الباب، ثمّ أدخلوني قفص الاتهام. كانت القاعة مليئة عن آخرها. ورغم وجود الستائر كانت الشمس تتسلّل من غير ما موضع، والجو قد بدأ يصير خانقاً. ولقد تُركت النوافذ مغلقة. جلست، ووجّهني الدركيان. وفي هذه اللّحظة، فقط، رأيت صفاً من الوجوه قبالتي، كانوا جميعهم يحدّقون فيّ: عرفت أنهم هيأة المحلّفين. بيد أنّي لا أستطيع أن أقول ما الذي يميّز أحدهم عن الآخر. وما كان لديّ سوى انطباع واحد لا غير: كنت أمام مقعد بمحطّة ترام، وكلّ هؤلاء المسافرين المجهولين يدقّقون النظّر في الواصل الجديد، ليكشفوا تفاصيله المضحكة. وكنت أعلم تماماً أنّها فكرة سخيفة، بما أنّهم هنا لا يفتّشون عن المضحك، وإنّما عن الجريمة. غير أنّ الفرق بين الأمرين ليس فرقاً كبيراً، وعلى كلّ حال تلك هي الفكرة التي راودتني.

وكنت أيضاً دائخاً شيئاً مّا، بسبب كلّ هذا الحضور داخل القاعة المغلقة. نظرت إلى القاعة مرّة أخرى، ولم أتعرّف أيّ وجه من الحضور. وأعتقد أنّي في البداية لم أستوعب أنّ كلّ هؤلاء النّاس يتزاحمون لرؤيتي. فعادة لا يهتم النّاس لشخصي. وقد تطلّب منّي الأمر جهداً، كي أدرك أنّي سبب هذا الهرج كلّه. قلت للدركي: «يا للحشد!». فأخبرني أنّ سبب ذلك هو الصّحافة، ونبّهني إلى جماعة كانوا جالسين إلى طاولة أسفل منصّة القضاة. قال لي: «هم أولاء»، سألته: «من تقصد؟»، فكرّر: «الصُحف». وكان يعرف أحد الصحفيين، الذي رمقه في تلك اللحظة، وقصَدنا. وكان رجلاً قد تقدم به العمرُ، ظريف المحيّا، وذا وجه متغضّن قليلاً. صافح الدركيَّ بحفاوة كبيرة. وفي تلك اللّحظة انتبهتُ إلى أنّ الجميع هنا يتلاقون، ويتنادون ويتناقشون، وكأنّهم في نادٍ حيث تغمر المرء سعادة لقاء أناسٍ يشاركهم العالم نفسه. وقد فسّرت لنفسي أيضاً ذاك الانطباع الغريب الذي انتابني بأنّي دخيل نوعاً ما. ومع ذلك التفتَ إليّ الصحفيّ وحدّثني مبتسماً. قال لي إنّه يأمل في أن تمضي الأمور بخير بالنسبة لي. شكرته، فأضاف: «أوَ تعلم، لقد غطينا قضيتك، تغطية مبالغاً فيها بعض الشيء. إنّ فصل الصيف هو موسم الرّكود بالنسبة للصّحف. ما كان ثمة من قضايا ذات شأن غير قضيّتك وقضية القتل الأبوي. بعد ذلك أشار إلى رجل،

ضمن الجماعة التي تركها، رجل قصير، شبيه بابن عرسٍ سمين، يضع نظارتين ضخمتين بإطار أسود. أخبرني أنّه المبعوث الخاص لجريدة باريسية: «هو، في الواقع، لم يأت لأجلك. لكن بما أنّه مكلّف بتغطية محاكمة القتل الأبوي فقد طُلب منه أن يكتب عن قضيتك في الآن نفسه». وهنا أيضاً كدت أشكره. غير أنّي فكرت في أنّ الأمر سيبدو مضحكاً. أومأ لي بيده إيماءة وديّة ثمّ انصرف. وانتظرنا دقائق بعد.

وصل محاميّ مرتدياً زيّه، ومحاطاً بالعديد من زملائه. توجّه إلى الصحافيين وصافح بعض الأيادي. وأخذوا يتمازحون ويتضاحكون، وبدوا في غاية الارتياح، إلى أن تردّدت رنّة جرس في القاعة، فعاد الجميع إلى أماكنهم. أقبل محاميّ صوبي، صافحني ثمّ نصحني بأن أجيب عن الأسئلة باقتضاب، وألاّ أبادر إلى الحديث، وأن أترك له ما تبقّى.

سمعت على يساري صوت كرسيّ يتزحزح، ورأيت رجلاً رشيقاً طويل القامة، يرتدي رداء أحمر ويضع نظارة، كان يجلس وقد سوّى ثوبه بعناية. كان ذاك المدّعي العام. أعلنَ محضرٌ قضائي بداية المحاكمة. وفي اللّحظة ذاتها بدأت مروحتان كبيرتان تئزّان. ودخل ثلاثة قضاة، اثنان منهما يرتديان السواد بينما يلبسُ الثالث رداءً أحمر، حاملين ملفات، وتوجهوا مسرعين إلى المنصّة المشرفة على القاعة. جلس الرّجل ذو الزيّ الأحمر على

الكرسي الأوسط، ووضع قلنسوته أمامه، ثمّ مسح رأسه الصغير الأصلع بمنديل وأعلن بداية الجلسة.

كان الصحافيون قد حملوا أقلامهم بأيديهم. وكانت تعلو وجوههم جميعاً تلك المسحة اللا مبالية، والساخرة شيئاً مّا. غير أنّ أحدهم، وكان أكثر شباباً يرتدي فلانيلة[1] رمادية وربطة عنق زرقاء، ترك قلمه موضوعاً أمامه وأخذ يحدّق فيّ. وما كنت أرى في وجهه، غير المتناسق قليلاً، سوى عينيه الشديدتي الصفاء، اللتين كانتا تتفحصانني بتمعن، دون أن تشفّا عن شيء محدّد. وتملكنّي انطباع غريب بأنّ ذاتي تنظرُ إليّ. ولعلّ تلك الملابسات جميعها، مضافاً إليها جهلي بطريقة سير الأمور هنا، هي ما جعلني لا أفهم جيداً كلّ ما جرى فيما بعد: اختيار المحلّفين بالقرعة، والأسئلة التي طرحها رئيس الجلسة على المحامي والمدعي العام وهيئة المحلّفين (وكانت رؤوس المحلّفين جميعها تتحرّك كلّ مرّة في الآن نفسه شطر هيئة القضاة)، ثمّ تلاوة سريعة لمحضر التحقيق، حيث كنت قد اعترفتُ بأسماء الأشخاص والأماكن، ومن جديد أسئلةً إلى محاميّ.

غير أنّ الرئيس قال إنّه يجب استدعاء الشهود. نادى المحضر

(١) ثوب من الصوف أو القطن الناعم.

على بعض الأسماء التي شدّت انتباهي. ومن وسط هذا الحشد الذي بدا، قبل قليل، غير واضح المعالم، رأيت أشخاصاً يقفون تباعاً، قبل أن يغادروا القاعة عبر باب جانبي؛ يتعلّق الأمر بمدير المأوى وبوّابه والشيخ توما بريز ورايمون وماسون وسلامانو وماري التي أومأت لي بإشارة قلقة. وكنت ما أزال أعجب من أنّي لم ألحظهم قبل الآن، حين نودي باسم آخر الشهود، سليست، فقام بدوره. واستطعت أن أميّز بجانبه شغّالة المطعم القصيرة بمعطفها وهيئتها الصارمة الحازمة. كانت تمعن النّظر إليّ. بيد أنّي ما وجدت الوقت للتفكير، إذ بادر الرئيس بالكلام. قال إنّ المداولات الفعلية ستبدأ، وإنّه يعتقد أنْ ما من حاجة إلى تذكير الحضور بالتزام الهدوء. وعلى حدّ قوله، إنّه هنا ليُدير، دون التحيّز إلى أي طرف، المرافعات حول قضيّة يريد أن ينظر فيها بموضوعية. وسيتمّ الأخذ بقرار هيئة المحلّفين في توافق وروح العدالة، وفي جميع الأحوال سيُخلي القاعة لدى حدوث أدنى اضطراب.

استمرّت الحرارة في الارتفاع، وكنت أرى الحضور يهوّون أنفسهم بواسطة الجرائد. ندّت عن الرئيس إشارة، فأحضر المُحضر ثلاث مراوح مجدولة من القشّ، استعملها القضاة الثلاثة على الفور.

وبدأ استجوابي دون إبطاء. سألني رئيس الجلسة بهدوء، لا

بل بشيء من الوّد، على ما بدا لي. سُئلت مجدّداً عن هويّتي، وبالرغم من انزعاجي من الأمر، غير أنّي في الواقع فكرت في أنّه أمر طبيعي، إذ سيكون من الخطورة بمكان أن يحاكم شخص بدل آخر. بعد ذلك شرع الرئيس في سرد ما اقترفتُه، متوقفاً بعد كلّ ثلاثة أسطر ليسألني: «هل هذا ما حدث بالفعل؟». وفي كلّ مرّة كنت أجيب: «أجل، سيدي الرئيس»، متبعاً في ذلك تعليمات محاميّ. وقد طال الأمر، لأنّ القاضي زاد دقائق كثيرة في سرده. وأثناء تلك المدة الزمنية كاملة، ظلّ الصحفيون يكتبون. وكنت أحسّ بنظرات أصغرهم سناً، ونظرات المرأة القصيرة الآلية. وكان مقعد محطّة الترام قد استدار بكامله نحو الرئيس. سعل هو، وقلّب أوراق ملّفه ثم استدار نحوي وهو يهوّي نفسه.

قال لي إنّه سيطرق الآن أسئلة قد تبدو بعيدة عن قضيتي، بيد أنّها قد تصيبها في الصميم. وأدركت أنّه سيحدّثني مرّة أخرى عن أمّي، واستشعرت في الآن ذاته مدى الانزعاج الذي سيصيبني. سألني عن السبب الذي دفعني إلى وضع أمّي في المأوى. فأجبته أنّي قمت بذلك لأن ما من نقود كانت لديّ لأحتفظ بها وأعتني بها. وسألني إذا ما كان هذا الأمر قد أثّر فيّ شخصياً، فأجبته أنّي وأمّي بلغنا مبلغاً ما عاد معه أحدنا ينتظر شيئاً من الآخر، لا بل ما كنا ننتظر شيئاً من أحد، وأنّ كلّ واحد منّا اعتاد حياته الجديدة. حينئذ قال الرئيس إنّه لا يريد الإلحاح

في هذه النقطة، ثمّ طلب من المدّعي العام إن كانت لديه أسئلة أخرى يودّ طرحها.

استدار المدعيّ العام، مولياً نصف ظهره لي، ثمّ أعلن أنّه يريد، بعد إذن القاضي، أن يعرف ما إذا كنت قد عدت إلى النبع وحدي بقصد قتل العربي. أجبته: «كلاّ». «لِمَ كنت مسلّحاً إذاً، ولِمَ عدت إلى هذا المكان تحديداً؟». قلت إنّ الأمر محض صدفة. فعقّب المدعي بنبرة سوء: «سأكتفي الآن بهذا القدر». ثمّ اختلطت الأمور في ما تلا ذلك، أقلّه عليّ. لكن بعد مشاورات، أعلن الرئيس رفع الجلسة، وأجّل الاستماع إلى الشهود لما بعد الظهيرة.

لم أجد الوقت للتفكير. لقد اقتادوني، وأركبوني سيارة السجن وأعادوني إلى السجن حيث تناولت غذائي. وبعد زمن يسير جداً، بكاد لا يكفي لأستبين أنّي كنت متعباً، عادوا لاصطحابي؛ وهكذا بدأ كلّ شيئاً من جديد، وألفيتُني داخل القاعة نفسها، مقابل الوجوه نفسها. الفرق الوحيد هو أنّ الحرارة كانت قد ارتفعت أكثر، وكأنّما بفعل معجزة كان القضاة والمدعي العام والمحامي وبعض الصحفيين مزوّدين جميعهم بمراوح من قشّ. وكان الصحفي الشاب والمرأة القصيرة ما يزالان هناك. بيد أنّهما ما كانا يروّحان أنفسهما، واستمرّا في النظر إليّ دون أن يقولا شيئاً.

مسحت العرق الذي كان يغطّي وجهي، ولم استعد وعيي بالمكان وبنفسي إلا حين نودي باسم مدير المأوى. سُئل المدير عمّا إذا كانت أمّي تشتكي منّي، فأجاب «نعم»، بيد أنّه استدرك أنّ هوس نزلاء المأوى يكاد يكون الشكوى من أقربائهم. سأله الرئيس أن يدقّق إجابته، حول إذا ما كانت أمي تعاتبني على وضعها في المأوى، فأجاب المدير مرة أخرى: «أجل». لكنّه لم يضف هذه المرّة شيئاً. وإجابة عن سؤال آخر، قال إنّه تفاجأ ممّا أبديته من برود يوم دفن أمّي. سُئل عمّا يقصده بكلمة برود. نظر المدير حينئذ إلى طرفيّ حذائه وقال إنّي ما رغبت في رؤية أمي، وما بكيت ولو مرّة واحدة، وانصرفت مباشرة بعدما أهيل عليها التراب، دون أن أجثو على قبرها. ثمّة شيء آخر فاجأه كذلك، فقد أخبره أحد عمّال الدّفن أنّي ما كنت على علم بسنّ والدتي. خيمّت لحظة صمت، وبعدها سأل الرئيسُ المديرَ عمّا إذا كنتُ المقصود بكلامه. وإذ لم يفهم المدير القصد من السؤال، خاطبه الرئيس قائلاً: «إنّه القانون». ثمّ سأل الرئيس المدعيّ العام ما إذا كانت لديه أسئلة يود توجيهها إلى الشاهد، فصاح المدعّي العام: «أوه! كلاّ، هذا يكفي»، مصوّباً نحوي نظرة برّاقة ومفعمة بالنّصر حدّ أنّي اجتاحتني رغبة لم أحسّها منذ سنوات، رغبة بليدة في أن أبكي، إذ أحسست حجم الكُره الذي يكنّه لي كلّ هؤلاء النّاس.

وبعدما استفسر الرئيس من هيئة المحلّفين ومن محاميّ عمّا إذا كانت لديهم أسئلة يرغبون في طرحها، استمع إلى البوّاب. وقد قام بالشكليات نفسها، شأنه شأن الآخرين. وحين وصوله كان قد نظر إليّ ثمّ أشاح بعينيه عنّي. أجاب عن الأسئلة التي وُجهّت له. وقال إنّي ما رغبت في رؤية أمّي، وإنّي دخّنت وإنّي نمت وإنّي شربت قهوة بالحليب. أحسست حينها شيئاً مّا يموج بالحضور كلّهم، وفهمت لأول مرّة أنّي كنت مذنباً. طُلب من البوّاب أن يعيد سرد حكاية القهوة بالحليب والسيجارة. ونظر إليّ المدعي العام وبريق تهكمّ يلوح في عينيه. وفي هذه اللّحظة سأل محاميّ البوّابَ عمّا إذا لم يكن قد دخّن معي. بيد أنّ المدعي العام عارض السؤال بشدّة: «أيّهما المتهم هنا؟ وأيّ طرق ملتوية هذه للمساس بمصداقية الشهود، رغبة في التقليل من إفادات لا يمكن أن يقال عنها أقلّ من أنّها ماحقة!». ومع ذلك، طلب الرئيس من البوّاب الإجابة عن السؤال. فقال الشيخ بنبرة مستاءة: «أعلم أنّي مخطئ. بيد أنّي لم أجرؤ على ردّ السيجارة التي أعطانيها السيّد». سُئلت، في المقام الأخير، عمّا إذا كانت لديّ إضافات، فأجبتُ: «ليس لديّ ما أضيفه، عدا أنّ الشاهد مُحقّ. فصحيح أنّي أنا من قدّم له سيجارة». حينئذ نظر إليّ البوّاب بشيء من الدّهشة، وضربٍ من الامتنان. تردّد قليلاً، ثمّ قال إنّه هو من قدّم لي القهوة بالحليب. وضجّ محاميّ ضجّة ظافر، وقال

إنّ هيئة المحلّفين ستقدّر هذا الأمر. لكنّ صوت المدعي العام دوّى فوق رأسينا، قائلاً: «أجل، أيها السّادة، سيثير هذا التفصيل استحسان المحلّفين. وسيخلصون إلى أنّ بوسع غريب أن يقدّم قهوة، غير أنّ ابناً ينبغي أن يرفض قبول القهوة وهو أمام جثمان تلك التي أنجبته». عاد البوّاب إلى مجلسه.

وإذ حان دور توما بريز أعانه أحد الأعوان القضائيين حتّى بلغ مِنصّة الشهود. ما قاله بريز، على وجه التخصيص، هو إنّه كان يعرف أمّي، وإنّه لم يرني غير مرّة واحدة، وكانت يوم الدّفن. سُئل عمّا فعلته ذاك اليوم، فأجاب: «أو تفهمون، أنا أيضاً كنت حزيناً جداً. لذا، لم أرَ شيئاً. كان الحزن يمنعني من رؤية ما يحدث. كان حزناً فوق طاقتي. حتّى أنّي أغمي عليّ. لذا لم أتمكن من رؤية السيّد». سأله المدعّي العام عمّا إذا كان، على الأقل، قد رآني أبكي. فأجاب، نافياً. قال المدعي العام حينئذ: «سيقدّر السّادة المحلّفون هذا». غير أنّ محاميّ اغتاظ، وسأل السيّد بريز، بنبرة بدت لي مبالغاً فيها، عمّا «إذا كان قد لاحظ أنني لا أبكي». ردّ بريز: «كلاّ». فضحك الحضور. فقال محاميّ بنبرة جازمة، وهو يشمّر أحد كمّيه: «هي ذي صورة هذه المحاكمة: كلّ شيء صحيح، ولا شيء صحيح!». اكتسى المدعي العام سحنةً صارمة وأخذ ينقر بقلم على مستندات ملفّه.

وبعد خمس دقائق من الترقّب، قال لي فيها محاميّ إنّ كلّ

الأمور تسير للأحسن، استمعنا إلى سليست الذي استدعاه الدفاع. والدفاع يعني أنا. وظلّ سليست يلقي من حين لآخر بنظراته تجاهي، وهو يقلّب طاقية بين يديه. وكان يرتدي البدلة الجديدة التي كان يضعها ليصاحبني بعض أيام الآحاد إلى سباق الخيل. غير أنّي أعتقد أنّه ما استطاع ارتداء ياقته، إذ كان يضع زراً نحاسياً واحداً فقط، ليُبقيَ قميصه مقفلاً. سُئل عمّا إذا كنت أحد زبائنه، فأجاب: «أجل، وهو أيضاً صديق»؛ ثمّ عن الانطباع الذي يحمله عنّي، فقال إنّي كنت رجلاً؛ وعمّا يقصده بجوابه، فأجاب أنّ الجميع يعرف ماذا يعني ذلك؛ وعمّا إذا كان قد لاحظ أنّي كنت منطوياً على نفسي، فأقرّ أنّي لست من النّوع الذي يتكلّم ليقول أيّ شيء. سأله المدعي العام عمّا إذا كنت أدفع ما عليّ بانتظام. فضحك سليست وقال: «تلك تفاصيل فيما بيننا». فسُئلَ مرّة أخرى، عن رأيه في جريمتي. حينئذ وضع يديه على العارضة، وكان يبدو أنّه قد جهّز شيئاً يقوله. وقال: «بالنسبة لي، تلك مصيبة. والكلّ يعرف ما تعنيه المصيبة. إنّها تجرّدك من كلّ إمكانية دفاع. هي إذاً، بالنسبة لي مصيبة». همّ بأن يكمل، غير أنّ الرئيس قاطعه قائلاً، إنّ هذا يكفي، وإنّ هيئة القضاة تشكره. حينئذ بقي سليست مذهولاً بعض الشيء. لكنّه استطرد معلناً أنّه يريد قول المزيد. طُلب منه أن يوجز. فكرّر مجدداً أنّها مصيبة، فقاطعه الرئيس قائلاً: «أجل، فهمنا أنها مصيبة. لكننا هنا

لنقضي في مثل هذه المصائب. إنّنا نشكرك». وإذ بلغ منتهى حيلته ومبلغ حسن نيته، التفت صوبي. خيّل إليّ أنّ عينيه كانتا تبرقان وشفتاه ترتجفان. وبدا كأنّما يسألني ماذا بوسعه أن يفعل بعد. أمّا أنا، فلم أقل شيئاً، ولم تندّ عنّي أيّ حركة، لكنّ تلك كانت أول مرّة في حياتي أرغب فيها في أن أقبّل رجلاً. حثّه الرئيس مرّة أخرى على ترك المنصة. ذهب سليست للجلوس في القاعة. وظلّ هناك طوال الجلسة، مائلاً إلى الأمام قليلاً، وواضعاً كوعيه على ركبتيه، وممسكاً قبّعته بين يديه، يصغي إلى كلّ ما يقال. دخلت ماري. كانت قد اعتمرت قبّعة، وكانت جميلة كالعادة. بيد أنّي كنت أفضّلها دون قبعة. ومن موضعي خمّنت وزن نهديها الخفيف، وتعرّفت شفتها السفلى التي كانت ما تزال ريّانة بعض الشيء. كانت تبدو متوترة جداً. ومباشرة، سُئلت منذ متى تعرفني. فعرضَت للفترة التي كانت تعمل فيها معنا. أراد الرئيس معرفة العلاقة التي كانت تجمعها بي، فقالت إنّها صديقتي. وإجابة عن سؤال آخر، قالت إنّه بالفعل كان مفترضاً أن نتزوج. قلّب المدعي العام أوراق أحد الملفات، وسألها بغتة، منذ متى ونحن على علاقة. فحدّدت التاريخ. أشار المدعي العام، بنبرة لا مبالية، أنّه يخيّل إليه أنّ التاريخ يطابق تاريخ اليوم الموالي لوفاة أمي. ثمّ قال بشيء من التهكم إنّه لا يود أن يلحّ على مقاربة وضعية تبدو معقّدة، فهو قد يتفهم دوافع

ماري. لكنّ ـ وهنا اشتدت لهجته ـ واجبه يحتّم عليه أن يرتفع فوق قواعد الكياسة. هكذا طلب من ماري أن تلخّص له ما جرى في اليوم الذي التقيتها فيه. لم تُرد ماري أن تجيب، بيد أنّها أمام إلحاح المدعي العام حكت عن سباحتنا معاً، وعن نزهتنا وعن السينما، ثمّ عودتنا معاً إلى بيتي. قال المدعي العام إنّه بعد الاطلاع على أقوال ماري في محضر التحقيق قام بمراجعة برنامج السينما يومها. ثمّ أضاف أنّ ماري نفسها هي من سيخبرنا عن الفيلم الذي كان يعرض آنذاك. وبصوت يكاد يكون أخرس قالت إنّنا، في الواقع، شاهدنا أحد أفلام فرنانديل. وإذ أنهت كلامها، خيّم صمت مطبق على القاعة. حينئذ قام المدعي العام، بحزم شديد، وقال بنبرة بدت لي متأثرة فعلاً، وهو يشير إليّ بسبّابته، مشدّداً على حروفه ببطء: «سادتي القضاة، إنّ هذا الرجل، غداة وفاة والدته، ذهب للسباحة، وبدأ فصول علاقة غير شرعية، ثمّ ذهب للضحك أمام فيلم فكاهي. ليس لي ما أقوله بعد». وجلس، وسط الصمت الذي كان ما يزال مخيّماً. لكن بغتة انفجرت ماري منتحبة، وقالت إنّ الأمر ليس كما صوّره المدعي، فثمّة أشياء أخرى، ولقد دُفع بها إلى قول خلاف ما كانت تعتقد، إنّها تعرفني تمام المعرفة، وتعلم إنّي ما فعلتُ سوءاً. غير أنّ المحضر، الذي تلقّى إشارة من الرئيس، اقتادها واستؤنفت الجلسة.

بعد ذلك تمّ الاستماع على وجه السرعة إلى ماسون، الذي صرّح بأنّي رجل شريف «وقد يزيد على ذلك، بأن يقول، إنّي رجل شجاع». وعلى وجه السرعة كذلك استُمع إلى سلامانو حين ذكّر بأنّي كنت طيّباً مع كلبه، وأجاب عن سؤال متعلق بي وأمّي، بأن قال إنّي ما عاد يجمعني بأمّي سبيل للحديث، ولهذا السبب وضعتها بالمأوى. «ينبغي تفهمّ المرء، ينبغي تفهّمه»، هكذا قال سلامانو، بيد أنّ لا أحد من الحضور بدت عليه سيماء التفهم. وقد اقتيد بدوره.

ثمّ جاء دور رايمون، آخر الشهود. أومأ لي رايمون بإشارة، ثمّ قال فوراً إنّي كنت بريئاً. بيد أنّ الرئيس قاطعه قائلاً إنّنا لا نريد انطباعاته وإنّما أن يحكي لنا وقائع. وطلب منه انتظار سماع الأسئلة قبل أن يجيب. طُلب منه تحديد علاقته بالضحيّة، فاستغل السؤال ليوضّح أنّه هو من كان الضحيّةُ يكرهه، مذ ضرب أخته. فسأله الرئيس عمّا إذا كان للضحية سبب ليكرهني. فقال رايمون إنّ تواجدي بالشاطئ كان محض صدفة. فسأله المدعّي حينها أن يوضح كيف أنّ الرسالة أصل المأساة، قد كانت مكتوبة بخطّ يدي. فأجاب رايمون أن الأمر صدفة. فتصدّى له المدّعي العام قائلاً إنّ الصدفة أثقلت كاهل الضمير بما يكفي من الأوزار في هذه القضيّة. ثمّ تساءل عمّا إذا كان محض صدفة كوني لم أتدخّل لمنع رايمون حين ضرب عشيقته، ومحض

صدفة كوني شهدت معه في المخفر، ومحض صدفة كون شهادتي بدت أشبه بالتواطؤ. ثمّ، في الأخير، استفسر من رايمون عن مصدر عيشه، فأجابه بأنّه كان «أمين مخزن»، حينئذ قال المدعي العام إنّ الشائع عن الشاهد كونه يمارس القوادة، وإنّي صديقه وشريكه. وهي جريمة خسيسة من أحطّ أشكال الجرائم، ويزيدها انحطاطاً كون مرتكبها وحشاً لا أخلاق له. أراد رايمون الدفاع عن نفسه، واعترض محاميّ، لكنّ الرئيس طلب منهما ترك المدعي العام ينهي كلامه. وقد قال المدّعي العام: «ليس لديّ ما أضيفه غير أشياء قليلة. هل هو صديقك؟». أجاب رايمون: «أجل، إنّه صديقي.»، وسألني المدّعي العام السؤال نفسه، فنظرت إلى ريمون الذي لم يبعد عينيه عنّي، وأجبت: «أجل». حينئذ التفت المدعي العام شطري وقال: «إنّ الرجل نفسه الذي أسلم نفسه، غداة وفاة والدته، لأحطّ أنوع الفسق، ارتكب جريمة قتل دوافعها تافهة، ولتصفية جريرة أخلاقية متعذّرة الوصف». ثمّ جلس. لكنّ محاميّ، وقد بلغ منتهى صبره، صاح رافعاً يديه، حتّى أنّ كمّيه، إذ سقطا للخلف، شفّا عن طيّات قميص منشّى: «لكن، أ هو متهم هنا بدفن والدته أم بقتل رجل؟». ضحك الحضور. بيد أنّ المدعيّ العام انتصب من جديد، وتلفّع بثوبه ثمّ قال إنّ المرء لينبغي أن يؤتى بساطة طبع المحامي الفاضل، حتى لا يتلمّس ما يجمع بين الأمرين من علاقة عميقة ومؤثرة وجوهرية، ثمّ أضاف بصوت عال: «أجل،

إنّي أتّهم هذا الرجل بدفن أمّه بقلب مجرم». وبدا وقع هذا التصريح كبيراً على الحضور. هزّ محاميّ كتفيه، ومسح العرق الذي كان يغطي جبينه. بيد أنّه، هو نفسه، بدا مهزوزاً، فأدركت آنذاك أنّ أموري لا تسير على ما يرام.

رُفعت الجلسة. وإذ خرجت من قاعة المحكمة لأصعد إلى السيارة، تنسّمت لبرهة رائحة المساء الصيفي ولونه. وفي ظلمة سجني السيّار استعدت، واحداً بعد آخر، وكأنّما انتشلُها من قعر تعبي، الأصوات المألوفة لمدينة كنت أحبّها، ولساعات كان يَعرض لي فيها أن أكون سعيداً. استعدتُ صراخ باعة الجرائد وهي ترتفع في الهواء الذي بدأ يخفّ؛ آخر الطيور في الساحة؛ نداءات باعة السندوتشات؛ أنين الترامات المرتفع عند منعطفات المدينة؛ ثمّ ضوضاء السماء قبل أن يهبط اللّيل على الميناء. كلّ تلك الأشياء كانت تأتيني، وكأنّما هي تؤلّف السبيل الذي يسلكه رجل أعمى، ذاك الدرب الذي كنت أعرفه قبل دخولي السجن. أجل، كانت تلك الساعةُ، التي مرّ عليها دهر، والتي كنت أشعر فيها أنّي سعيد؛ فحينئذ ما كان ينتظرني دوماً هو نوم خفيف لا أحلام تشوبه. ومع ذلك فإنّ شيئاً مّا تغيّر، إذ ما ألفيته، وأنا أتطلّع للغد، لم يكن غير زنزانتي. وكأنّما تلك الطرق المألوفة، التي خُطّت في السماء، يمكن أن تقود المرء إلى السجن مثلما يمكن أن تقوده إلى النوم الهانئ.

٤

حتى وهو في قفص الاتهام لا يعدم المرء متعةً في أن يسمع النّاس يتحدثون عنه. وأثناء مرافعات المدّعي العام ومحاميّ سمعت الكثير من الحديث عنّي، لا بل بوسعي أن أقول إنّهم تحدثوا عنّي أكثر ممّا تحدّثوا عن جريمتي. وهل كان ثمّة من اختلاف كبير أصلاً، بين هذه المرافعات؟ لقد كان المحامي يرفع يده ليترافع عن كوني مذنباً، لكن مع التماس العذر لي. وكان المدعي العام يبسط يديه ليعلن أنّي مذنب، لا عذر له في ذنبه. بيد أنّ ثمّة شيئاً كان يخلّف لديّ انزعاجاً غامضاً. ذاك أنّي، بالرغم من همومي، كنت أهمّ أحياناً بالتدخل، لكنّ محاميّ ظلّ يقول لي: «أصمت، فهذا خير لك». فكأنّما تمّ تناول القضية، بعيداً عنّي. فكلّ شيء كان يسير دون أن أتدخّل فيه. لقد كان مصيري يتحضّر دون استشارتي. بين الفينة والأخرى كانت تستبدّ بي الرّغبة في أن أقاطع كلام الجميع وأن أقول: «ولكن، أيّنا المتهم؟ أن تكون متهماً فهذا ليس أمراً دون أهميّة. وإنّ لديّ ما أقوله!». بيد أنّي، إذ أروّي في الأمر، أجد أنّ ما من شيء لديّ

لأقوله. لا بل عليّ الاعتراف أنّ ما نلفيه من أهمية في شغل الناس لا يدوم طويلاً. مَثل ذلك أنّ مرافعة المدّعي العام سرعان ما أرهقتني. وحدها بعض المقاطع أو الإيماءات أو العبارات الكاملة، لكن المجتثة من السياق العام، أثّرت فيّ وأيقظت اهتمامي.

وإذا ما فهمت جيّداً فإنّ خلاصة رأيه تكمن في كوني قد ارتكبت جريمتي عن سابق إصرار وترصّد. على الأقل، هذا ما حاول تبيينه. وعلى حدّ قوله: «سأبرهن على هذا الأمر، وبحجّة مضاعفة. أولاً بواسطة الوقائع الواضحة وضوحاً يغشى الأبصار، ثمّ ثانياً بإضاءة المناطق المعتمة، التي ستمنحنا تشخيصاً نفسياً لهذه الروح المجرمة». لخّص الوقائع التي جرت منذ وفاة أمّي، وركّز على برودي تجاه الحدث، وعلى جهلي سنّ أمّي، والسباحة مع امرأة غداة ذلك، ثمّ السينما، وفيلم فرنانديل، فالعودة إلى المنزل بصحبة ماري. وقد احتجت وقتاً حتّى أفهم قصده، إذ كان يقول: «عشيقته»، بينما بالنسبة لي كانت «ماري». ثمّ انتقل بعد ذلك إلى قصّة رايمون. وقد وجدت أنّ طريقته في رؤية الأحداث ما كان يعوزها الوضوح. فما كان يقوله معقول. لقد كتبتُ بالفعل رسالة بالاتفاق مع رايمون حتى استدرج عشيقته، ثمّ أُسلمها لفظاعة رجل «ذي أخلاق مريبة». واستثرت خصوم رايمون على الشاطئ. وقد أُصيب بسبب ذلك. طلبت منه

مسدّسه. عدتُ بمفردي، بِنيّة استعماله. قتلتُ العربيّ مثلما خطّطتُ. انتظرتُ برهة. ثمّ، «حتّى أتأكد من أنّ المهمّة قد أنجزت فعلاً»، أطلقت أربع رصاصات أخرى، بثبات وعزم، وبطريقة مدروسة نوعاً مّا.

قال المدّعي العام: «هو ذا، سادتي، لقد رسمتُ أمامكم مسار الأحداث التي قادت هذا الرّجل إلى ارتكاب جريمة قتل، وهو في كامل وعيه، وأشّدد على هذا الأمر، إذ لا يتعلّق الأمر بجريمة قتل عادية، بفعل غير محسوب العواقب قد يفيد من ظروف التخفيف. هذا الرّجل، سادتي، هذا الرّجل حصيف. لقد استمعتم إليه، أليس كذلك؟ إنّه يعرف كيف يجيب. ويعلم قيمة الكلمات. وليس بوسعنا القول إنّه تصرّف دون أن يدري ما هو مقدم على فعله». وكنت أنا أستمع وأنصت إليه إذ ينعتني بالحصيف. لكنّي ما فهت كيف يمكن لطباع رجل عادي أن تنقلب إلى قرائن إدانة دامغة ضد متّهم. كان هذا، على الأقل، ما فاجأني، ولم أنصت بعد ذلك لما يقوله المدّعي العام، إلى أن سمعته يقول: «أوَ أبدى، على الأقل، أسفه؟ كلاّ، سادتي. لم يبدِ هذا الرّجل أثناء التحقيق معه، ولا لمرّة واحدة، أسفه على جريمته النكراء». ثمّ، استدار شطري وأشار إليّ بسبّابته مُمعِناً في إذلالي دون أن أفهم حقيقةً لمَ. لا ريب في أنّي لا أستطيع إنكار كونه مصيباً فيما يقوله. فلست آسفاً حقاً لما اقترفت. غير أنّ هذا

القدر كلّه من الضراوة يدهشني. وددت لو أشرح له بودٍ، لا بل بشيء من العطف، أنّي ما أسفت يوماً لشيء حقّ الأسف. كنت دوماً مأخوذاً بما سوف يحدثُ، مأخوذاً بيومي أو غدي. بيد أنّه، من الموقع الذي وُضعت فيه، كان طبيعياً ألاّ أستطيع التحدث لأيّ أحد بمثل هذه النبرة. ما كان لديّ الحق في إظهار تودّدي، أو إبراز حُسن النيّة. وحاولت أن أسمع المزيد، إذ كان المدّعي العام قد شرع في الحديث عن روحي.

كان يقول إنّه أشرف عليها، فما رأى ثمّة شيئاً، سادتي القضاة. كان يقول، إنّي، في حقيقة الأمر بلا روح. ولا شيء إنسانيّ فيّ، ولا سبيل لي إلى إيّ مبدأ من تلك المبادئ الأخلاقية التي تصون قلوب البشر. وأضاف: «لا ريب في أنّنا لا نستطيع لومه على ذلك. ما لا يستطيع كسبه، لا يمكن أن نلومه على افتقاره إليه. غير أنّه حين يتعلّق الأمر بهذه المحكمة، ينبغي أن تنقلب تلك الفضيلة السلبية المتمثلة في العفو إلى الفضيلة الأصعب والأسمى المتمثلة في العدالة. خاصة حين يصير خواء قلب هذا الرّجل هوّة قد يسقط فيها المجتمع». وإذّاك تحدّث عن موقفي تجاه أمّي. وأعاد ما كان قد قاله أثناء المرافعات. غير أنّه أسهب أكثر من إسهابه أثناء حديثه عن جريمتي. كان مسهباً لدرجة أنّي، في نهاية المطاف، ما عدت أحسّ غير وطأة صهد ذاك الصباح. أقلّه إلى أن توقّف المدّعي العام، وبعد برهة

صمت، استأنف حديثه بصوت خفيض جداً وواثق: «هذه المحكمة نفسها، يا سادتي، ستنظر غداً في أنكر الجرائم: ابن قتل أباه». وفي اعتقاده أنّ الخيال ليعجز عن مجاراة هذه الجريمة الفظيعة. ويأمل في أن تعاقب عدالة البشر هذا المجرم دون رأفة. غير أنّه لا يتحرّج من القول إنّ الهول الذي يستشعره من تلك الجريمة يكاد يندحر أمام الهول الذي يشعره إزاء برودي. وبحسبه دائماً، من يقتل أمّه قتلاً معنوياً، يقطع صلته بمجتمع البشر، شأنه شأن ذاك الذي يُشهر يد القتل في وجه من وهبه نعمة الحياة. ففي الأحوال جميعها يهيّئ الأولُ الأرضَ لجريمة الثاني، ويعلن عنها بمعنى مّا، لا بل إنّه يضفي عليها طابع المشروعية. وأضاف رافعاً من صوته: «إنّي متيقّن، سادتي، أنّكم لن تُلفوا كلامي مبالغاً فيه، حين سأقول إنّ هذا الرّجل الجالس خلف القضبان مسؤول أيضاً عن الجريمة التي سننظر فيها غداً. وعليه ينبغي أن يعاقب». وهنا مسح المدّعي العام وجهه الذي يلمع من العرق. وقال في الأخير إنّ واجبه ليؤلمه لكنّه سيتمّه بحزم. وأعلن أنّ لا مكان لي في مجتمع أتجاهل أبسط قواعده وأن لا حقّ لي في استعطاف هذا القلب الإنساني الذي أُعرض عن ردود فعله الأوليّة. ثمّ قال: «إنّي أطالب برأس هذا الرّجل، وأطالب برأسه بقلب مطمئن. ذاك أنّه إن كان قد حدث لي، عبر مسيرتي الطويلة أصلاً، أن طالبت بتنزيل عقوبات كبيرة على المتهمين،

فإنّي لم أشعر قطّ، مثلما شعرت اليوم، بهذا الواجب المُضني، وقد غدا مُكافأً ومتوازناً ووضّاءً، بفضل ضمير لحوحٍ مقدّس، وهذا الهول الذي يصيبني من التحديق في وجه رجل لا أقرأ فيه سوى ما هو وحشي».

وإذ جلس المدّعي العام خيّمت برهة صمت تكاد تكون طويلة. أمّا أنا فقد كنت دائخاً بسبب الضّهد والدهشة. سعل الرئيس قليلاً، ثمّ سألني بصوت خفيض جداً، عمّا إذا كان لديّ ما أضيفه. قمتُ، وإذ كانت بي رغبة في الكلام، قلت، بشيء من الارتجال، في الواقع، إنّي ما كنت أنوي قتل العربي. أجابني الرئيس بأنّ كلامي ينطوي على إقرار بالجريمة، وبأنّه حتّى تلك اللحظة لم يستطع استيعاب نظام دفاعي، وبأنّه سيسعده، قبل الاستماع إلى محاميّ، أن يدقّق معي الدوافع التي كانت وراء فعلتي. فأجبت بسرعة، وأنا أخلط الكلمات قليلاً وأعي مدى سخافتي، أنّ الأمر حدث بسبب الشمس. سُمعت ضحكات في القاعة. هزّ محاميّ كتفيه، ثمّ مُنح الكلمة مباشرة عقب ذلك. بيد أنّه قال إنّ الوقت قد تأخر، لقد استغرق الأمر منّا ساعات طويلة، وإنّه يطلب تأجيل القضية إلى الغد. فوافقت المحكمة على طلبه.

في الظهيرة، كانت المراوح ما تزال تمزج هواء القاعة الثقيل، ومراوح القضاة الصغيرة المتعدّدة الألوان تتحرك، في

اتجاه واحد. بدا لي أنّ مرافعة محاميّ لن تنتهي. غير أنّي أنصتّ له، في لحظة مّا، إذ كان يقول: «صحيحٌ، أنّي قَتلتُ»، ثمّ أكمل على النّهج نفسه، قائلاً «أنا» كلّما كان الحديث عنّي. دهشت غاية الدّهشة. مِلتُ على الدركيّ وسألته لِمَ. أمرني بالصمت، وبعد لحظة أضاف، «جميع المحامين يتكلّمون بهذه الطريقة». أمّا أنا، فقد فكرت أنّ هذا الأمر يمعن في إبعادي عن القضية، في تحويلي إلى صفر، وبمعنى مّا يُحلّ أحداً محلّي. بيد أنّي أعتقد أنّي كنت أصلاً بعيداً بما فيه الكفاية عن قاعة المحكمة هذه. فضلاً عن أنّ محاميّ بدا لي سخيفاً. لقد عرض إلى مسألة الاستثارة سريعاً، ثمّ تكلم بدوره عن روحي. لكنّه بدا لي أقل موهبة بكثير من المدّعي العام. قال: «أنا أيضاً أشرفت على هذه الروح، غير أنّي على خلاف ممثل الحق العام المحترم، وجدتُ شيئاً مّا، وبوسعي أن أقول إنّي كنت أنظر فيها وكأنّما أطالع كتاباً مفتوحاً». لقد قرأ في روحي أنّي كنت رجلاً شريفاً، عاملاً منضبطاً، لا أكِلّ، أميناً تجاه مستخدمي، محبوباً من طرف الجميع، ومتضامناً مع الآخرين في بؤسهم. وبالنّسبة له كنت ابناً بارّاً ساند أمّه قدر استطاعته. وفي آخر المطاف ارتأيت أنّ مأوى المسنّين سيمنح عجوزاً أسباب الرّاحة التي تعجز إمكاناتي عن توفيرها. أضاف: «إنّي لأعجب، سادتي، أنّا أثرنا كلّ هذه الضجة حول المأوى. ذاك أنّنا لو أردنا مساءلة مدى فائدة مثل

هذه المؤسسات وعظمتها، لوجب القول إنّ الدولة نفسها هي من يدعهما». على أنه، لم يطرق موضوع الدّفن، وقد أحسست أنّ هذا الأمر ينقص مرافعته. لكنّي بسبب كلّ تلك الجمل الطويلة وتلك الأيام والساعات التي لا تنتهي، والتي تحدثّوا فيها عن روحي، خُيّل إليّ أنّ كلّ شيء يتحوّل إلى ماء عديم اللّون، ماء يصيبني بالدوار.

ما أذكره في النّهاية فقط هو أنّه ارتفع، من الشارع وعبر مساحة القاعات وأروقة الحكمة كلّها، نفير بوق بائع المثلجّات، بينما محاميّ مستمر في حديثه. كانت تنهال عليّ مُرهِقةً ذكرياتُ حياة ما عادت تخصّني بعدُ، لكنّها الحياة التي عرفت فيها أتفه لحظات فرحي وأعندها: روائحُ صيفٍ، الحيُّ الذي كنت أحبّه، سماءٌ مسائيّة، ضحكات ماري وفساتينها. غصّ حلقي بكلّ الأمور عديمة الجدوى التي كنت أفعلها هناك، وما عادت بي سوى لهفة إلى أن أنتهي من كلّ هذا وأن أعود إلى زنزانتي وأنام. وما كدتُ أسمع محاميّ ينهي مرافعته صائحاً أنّ القضاة لن يرغبوا في أن يرسلوا إلى الموت عاملاً نزيهاً أضاعته لحظة زيغ. ويطلب ظروف التخفيف عن جريمة بتّ أحمل وزرها الأبديّ، كأقسى ما يمكن أن يكونه العقاب. رفع القضاة الجلسة، وجلس المحامي بهيئة منهكة، غير أنّ زملاءه أتوا يصافحونه. وسمعتهم يقولون: «رائع، يا عزيزي». بل إنّ أحدهم بلغ حدّ أخذ رأيي:

«أليس كذلك؟». أذعنت موافقاً، بيد أنّ مجاملتي ما كانت صادقة، إذ كنت متعباً جداً.

على أنّ الوقت كان يجنح في الخارج نحو الغروب، وكانت وطأة الحرّ تخفّ. ومن ضجيج الشارع الذي كان يصلني خمّنت عذوبة المساء. وكنّا جميعا ننتظر هنا. وما كنّا ننتظره جميعاً، كان يعنيني وحدي. نظرت مرّة أخرى إلى القاعة. كان كلّ شيء كما في اليوم الأول. والتقت نظرتي بنظرة الصحفي الشاب ذي السترة الرمادية ونظرة المرأة الآلية. ودفعني ذلك إلى التفكير في أنّي لم أبحث عن ماري بناظري طيلة فترة المحاكمة. لم أكن قد نسيتها، غير أنّي كنت مشغولاً بأمور كثيرة. لمحتها بين سليست ورايمون. أومأت إليّ بإشارة، كأنّما تقول لي: «أخيراً»، ورأيت وجهها الكدر بعض الشيء، يبتسم. لكنّي أحسست قلبي منقبضاً، وما استطعت حتّى أن أردّ على ابتسامتها.

عاد القضاة. وبسرعة تُليت على مسامع المحلّفين سلسلة من الأسئلة. وسمعت: «مذنب بجريمة قتل»... «عن سابق إصرار وترصّد»... «ظروف التخفيف». غادر المحلّفون القاعة، واقتادوني إلى الحجرة الصغيرة حيث كنت قد انتظرت من قبل. لحق بي محاميّ: كان يتحدّث بسلاسة، وخاطبني بثقة وتودد أكثر من أيّ وقت مضى. كان يعتقد أنّ كلّ شيء سيسير على ما يُرام، وأنّ الأمر سينتهي بي إلى أن أسجن، بضع سنوات، في

السجن أو الأشغال القسرية. سألته عمّا إذا كان ثمّة سبيل للنقض، إذا ما كان الحكم غير مناسب. قال لي إنّ الأمر غير ممكن. فقد كانت خطّته تقوم على عدم وضع طلب نقض حتّى لا يثير حفيظة القاضي. أخبرني أنّه لا يمكن أن يُنقض حكم في قضية كهذه دون دواع وجيهة. بدا لي الأمر منطقياً، وانقدت لتعليله. وبالنظر الحيادي إلى القضية، يبدو الأمر طبيعياً. وفي الحال المعاكسة سننفق الكثير من الوثائق التي لا فائدة منها. وقد قال لي محاميّ: «وفي جميع الأحوال ثمّة إمكانية الاستئناف. بيد أنّي متيقن من أنّ الحكم سيكون جيداً».

أحسِب أنّا انتظرنا طويلاً؛ ما يقارب ثلاثة أرباع الساعة. وفي ختام هذا الانتظار سُمع رنين جرس. تركني محاميّ قائلاً: «إنّ رئيس هيئة المحلّفين سيتلو الإجابات. ولن يتمّ إدخالك إلا لحظة النطق بالحكم». صفقت أبواب. ركض أناس في السلالم التي لم أدرِ ما إن كانت قريبة أم بعيدة. ثمّ سمعت صوتاً مكتوماً يتلو شيئاً داخل القاعة. وحينما قُرع الجرس مرّة أخرى، وفُتح باب الحجرة، كان صمت القاعة هو ما أتاني؛ الصمت، وذاك الإحساس الفريد الذي انتابني حين لاحظت أنّ الصحفي الشاب قد أشاح بعينيه عنّي. لم أنظر جهة ماري. ما كان لديّ وقت لذلك، إذ خاطبني الرئيس بأسلوب غريب، قائلاً إنّهم سيقطعون رأسي في ساحة عامة باسم الشعب الفرنسي. حسِبت آنذاك أنّي

أعرف الإحساس الذي كنت أقرأه في الوجوه. أعتقد جازماً أنّه كان شعور تقدير. كان الدركيان رفيقيْن جداً بي. وضع المحامي يده على معصمي. ما كنت أفكر في شيء بعد. لكنّ الرئيس سألني عمّا إذا كان لديّ ما أضيفه. روّيتُ، ثمّ قلت: «لا». وحينئذ فقط، تمّ اقتيادي.

٥

للمرة الثالثة أرفض استقبال القسّ. ليس لديّ ما أقوله له، ليست بي رغبة في الكلام، قريباً سأراه بما يكفي. إنّ ما يهّني اللّحظة هو أن أفلت من النظام الآلي، أن أعرف ما إذا كان ثمّة مخرج ممّا هو محتوم. لقد أخذوني إلى زنزانة أخرى. ومن زنزانتي الجديدة ألمح السماء حين أستلقي، ولا أرى غيرها. وأصرف أيامي كلّها في متابعة أفول الألوان على صفحتها، ذاك الأفول الذي يقود النهار إلى الليل. مستلقياً على فراشي، أضع راحتيّ تحت رأسي وأنتظر. لا أستطيع عدّ المرات التي تساءلت فيها عمّا إذا كانت ثمّة حالات محكومين استطاعوا الإفلات من نظام الآلة الصارم، أو الهرب قبل تنفيذ الحكم، أو اخترقوا صفوف الحرس. وهنا صرتُ ألوم نفسي على عدم اهتمامي الكافي بقصص الإعدامات. ينبغي على المرء دوماً الانتباه إلى هذه المسائل. فلا أحد يعلم ما تخبّئه الأيام. ومثل جميع النّاس كنت قد قرأت تقارير في الجرائد، غير أنّ ثمّة بالتأكيد كتباً مختصة في هذا الموضوع ما أثارني الفضول لمطالعتها. لعلّي

كنت لأجد في تلك الكتب بعض تفاصيل عمليات الهرب. لكنتُ علمت أنّ العجلة في حالة، واحدة على الأقل، تعطّلت. وأنّ الحظ والصدفة تدخّلا، لمرة واحدة فقط، في هذا التصميم الذي لا مفرّ منه. مرة واحدة! أعتقد أنّ تلك المرة الواحدة كانت تكفيني، على نحو مّا. وكان قلبي ليتكفّل بالباقي. تتحدّث الجرائد عادة عن ديْن تجاه المجتمع؛ دين ينبغي قضاؤه، بحسب قولهم. بيد أنّ لا خيال في هذا الأمر. ما كان يهمّ هو إمكان فرار، هو قفزة خارج هذا الطقس الصارم، ركض محموم يتيح كلّ فرص الأمل. وبالطبع، كان الأمل أن يُقتل المرء عند زاوية زقاق، أثناء ركضه، وبرصاصة طائرة، بيد أنّي، إذ أفكّر في الجوانب كلّها، أجد لا شيء يمنحني هذا الامتياز، لا بل إنّ كل الإشارات تحرمني منه، وهو ذا النظام الآلي يعيدني إلى واقعي.

بالرغم من حسن نيّتي، لا أستطيع الإذعان لهذا الواقع الوقح. ذاك أنّ ثمّة تنافراً أبله، ما بين الحكم الذي بُني عليه الواقع، وبين المجرى الهادئ الذي اتخذه هذا الواقع، مذ نُطق بالحكم. فإنّ كون الحكم قد تُلي في الساعة الثامنة مساء بدل الخامسة، وإذ كان بالإمكان أن يكون شيئاً آخر غير ما هو عليه، وكونه قد اتّخذ من طرف رجال ذوي حظوة، وكونه قد نُطق باسم مفهوم غير دقيق، مثل مفهوم: «الشعب الفرنسي» (شأن

الشعب الألماني أو الصيني)، كلّ تلك الأشياء تبدو لي أنّها تنزع عن مثل هذا الحكم الكثير من طابع الجديّة. بيدَ أنّي لا أجد مناصاً من الاعتراف بأنّه منذ اللحظة التي نُطق فيها بالحكم صارت نتائجه حتمية، وجادّة، نظير حتمية وجديّة هذا الحائط الذي أضرب جسدي عرضَه.

وتذكرت في تلك الآونة قصّة عن أبي كانت أمّي تحكيها لي. أبي لم أشهده. ولعلّ كلّ ما كنت أعرفه إذاً عن ذاك الرّجل من أشياء محدّدة ودقيقة، هو ما كانت أمّي تحكيه. تقول: كان ذات يوم قد ذهب ليشهد إعدام قاتل. كان يخشى تلك الفكرة، حدّ أنّها تُمرضه. وذهب مع ذلك، ثمّ حين عاد، ظلّ يتقيّأ لفترة من الظهيرة. حينئذ شعرت بالاشمئزاز من أبي. أمّا الآن فأتفهمه، فالأمر طبيعي. كيف لم أنتبه إلى أنّ لا شيء أهمّ من عقوبة إعدام، وأنّها في المحصّلة الشيء الوحيد الذي سيثير اهتمام رجل، بالفعل! إذا ما حدث وخرجت من هذا السجن سأحضر كلّ عقوبات الإعدام. وأعتقد أنّي كنت مخطئاً، إذ فكرت بهذا الاحتمال. لأنّي إذ تصورت نفسي حراً ذات صباح، خلف صفّ من الحرس، من الجانب الآخر، إن جاز التعبير، إذ تصوّرتُ نفسي المتفرّج الآتي ليشهد العملية ثمّ يتقيأ فيما بعد، سَرت في قلبي موجة فرحٍ أخّاذ. بيد أنّ هذا الأمر لم يكن منطقياً. لقد أخطأت حين تركت نفسي تنقاد إلى مثل هذه الافتراضات، إذ،

مباشرة بعد ذلك، سَرت في جسدي برودة لا تطاق، فالتفعت بغطائي. وكانت أسناني تصطكّ دون أن أستطيع كبحها.

بيد أنّه من الطبيعي ألاّ يكون المرء دائماً منطقياً. وفي لحظات أخرى، على سبيل الذكر، كنت أشتغل على مشاريع قوانين. كنت أصلح قوانين العقوبات. وكنت قد لاحظت أنّ الجوهري في العملية هو منح المحكوم فرصة. فرصة واحدة من ألف تكفي لتنتظم الأمور. وعليه، كنت أخال بالإمكان إيجاد خلطة كيميائية، يكون استنشاقها من طرف المريض (كنت آنذاك أفكر: المريض)، مميتاً بنسبة تسعة من عشرة. ينبغي أن يعلم المحكوم بالأمر، هو ذا الشرط. وإذ أفكّر مليّاً، وأقلّب الأمور برويّة، أرى أنّ ما يعيب المقصلة هو أن ليس ثمة من حظ للإفلات، ولا فرصة واحدة. لقد تقرّر موت المريض، قراراً لا رجعة فيه. إنّه أمر مقضيّ، تركيب محكم، اتفاق ناجز ولا سبيل للعدول عنه. وإذا ما حدث، بمعجزة، أن تعطّلت الآلة، ستُعاد الكرّة. والمزعج في الأمر، تبعاً لذلك، هو أنّ المحكوم سيتمنّى أن تعمل الآلة بشكل سليم. أقول إنّ هذا هو الجانب المعيب. وهذا الأمر صحيح، من جهة. لكن، من جهة أخرى، عليّ أن أعترف بأنّ سرّ نظام متكامل يكمن بالضبط هنا. وفي المحصّلة على المحكوم أن يتعاون معنوياً. فقد كان لصالحي أن يسير كلّ شيء دونما عثرة.

وما كان لي بدٌّ من أن ألاحظ، كذلك، أنّ آرائي حول هذه القضايا كانت حتى اللّحظة غير صائبة. فقد خلت لزمن طويل - ولست أدري لمَ - أنّ على المرء، المرءُ لكي يبلغ المقصلة، أن يصعد سقالة، وأن يرتقي درجات. وأعتقد أنّ السبب هو ثورة ١٧٨٩، أعني أنّ السبب هو كلّ ما لقّنوني إيّاه أو ما جعلوني أشاهده عن موضوع الثورة. بيد أني تذكرتُ، ذات صباح، صورة كانت قد نشرتها صحيفة بمناسبة عملية إعدام كان لها وقع كبير. وفي الحقيقة، كانت الآلة موضوعة على الأرض، كأبسط ما يمكن أن يكون. وكانت أصغر بكثير ممّا كنت أتخيّل. والغريب أنّي لم استحضر الصورة من قبل. لقد صدمتني تلك الآلة على الصورة، بمظهرها الدقيق والحاد واللمّاع. إنّنا دائماً ما نكوّن صوراً مبالغاً فيها عمّا نجهله من أشياء. وكان عليّ أن ألاحظ، على خلاف ذلك، أنّ الأمور كانت بسيطة: إنّ الآلة توجد في مستوى واحد والرّجل الذي يتقدّم نحوها. فهو يمشي إليها، مثلما يمشي للقاء شخصٍ مّا. وهذا الأمر أيضاً كان مزعجاً. فالصعود إلى السّقالة، والارتفاع في السماء، أشياء بوسع المخيّلة التّعلق بها. بينما في هذه الحال، يَكسِر النظامُ الآليُّ، مرّة أخرى، كلَّ شيء: إنّها ميتة خرساء، فيها شيء من الخزي والكثير من الصرامة.

كان ثمّة أيضاً أمران ظللت أفكّر فيهما طوال الوقت: الفجر

وإمكانية استئنافي. وكنت، بالرغم من ذلك، أتعقّل وأحاول ألاّ أفكّر في الأمر. كنت أستلقي، وأرنو إلى السماء، وأجبر نفسي على الاهتمام بها. كانت تجنح إلى الخضرة، فالوقت صار مساءً. وكنت ما أزال أجهد نفسي لأحوّل مجرى أفكاري. كنت أنصت إلى قلبي. وما خلت يوماً أنّ هذا الصوت الذي لزمني طويلاً يمكن أن يتوقّف. لم تكن لي يوماً مخيّلة فعلية. ومع ذلك حاولت أن أتمثّل لحظة سيتوقّف فيها خفقان هذا القلب عن التردّد في رأسي. لكن محاولتي ذهبت سدىً. كلّما تخيّلت حضرني الفجر، أو الاستئناف. وانتهيت إلى أن أقنع نفسي بأنّ أكثر الأمور عقلانية تتمثلّ في ألاّ أعارض ذاتي.

كنت أعلم أنهم يأتون فجراً. وفي المحصّلة، شغلت لياليّ بانتظار هذا الفجر. لم أحبّ يوماً أن أفاجأ. عندما يحصل لي شيء أفضّل أن أكون حاضراً متيقظاً. لهذا فضّلت ألاّ أنام إلا قليلاً من نهاري، أمّا لياليّ فكنت أنفقها بصبر في انتظار انبثاق النور على صفحة السّماء. أصعب ما كان في الأمر هو تلك الساعة المريبة التي كنت أعلم أنهم يأتون عادة فيها. وإذ ينصرم منتصف اللّيل أبدأ في الترقب والانتظار. لم يسبق لأذني قطّ أن التقطت هذا القدر من الضجّة، أو استطاعت تمييز أصوات متباينة كلّ التباين. بل إنّ بوسعي القول إنّي كنت محظوظاً في تلك الفترة كلّها، لأنّي لم أسمع أيّ خطوة آنذاك. كانت أمّي تردّد

كثيراً أنّ المرء لا يكون قطّ شقياً تماماً. وقد خبرتُ ذلك أثناء حبسي، حين كانت السّماء تتلوّن ويتسلّل نهار جديد إلى زنزانتي. فقد كان بالإمكان أن أسمع وقع خطى فينفجر قلبي. على الرّغم من أنّي عند أقلّ صريرٍ كنت أقفز لألتصق بالباب، وبالرّغم من أنّي كنت ألصق أذني بخشبه مترصّداً بجنون، حتّى أبدأ بسماع أنفاسي، وأجزع إذ أُلفيها متحشرجة وأقرب ما تكون إلى هرير الكلاب، وفي الختام، لا ينفجر قلبي، وأكون قد كسبت أربعاً وعشرين ساعة أخرى.

وأقضي سحابة نهاري مشغولاً بموضوع الاستئناف. وأعتقد أنّي أفدت غاية الإفادة من هذه الفكرة. إذ كنت أحسب احتمالاتي واستخلص من أفكاري أفضل ما يمكن استخلاصه. كنت أضع في الحسبان دائماً أسوأ الاحتمالات: أن يرفض طلب الاستئناف. «عندها، سأموت إذاً». أكثر شباباً من آخرين، هذا بيّن بنفسه. لكنّ الجميع يعلم أنّ الحياة لا تستحقّ أن تعاش. وفي قرارتي ما كنت أجهل أنّ الموت في الثلاثين أو الستين لا يشكّل فرقاً، ما دام في الحالتين سيستمر رجال ونساء آخرون في الحياة، وسيدوم هذا آلاف السنين. وفي المحصّلة لم يحدث أن كان شيء أكثر وضوحاً من هذا. سأكون أنا من يموت دائماً سواء متّ الآن أم متّ بعد عشرين عاماً. ما كان يشوّش قليلاً عليّ استدلالي، آنئذ، هو ذاك الاهتياج الرهيب الذي كنت أحسّه

بداخلي كلّما فكّرت في العشرين عاماً القادمة. بيد أنّه كان يكفيني أن أخنق هذه الهواجس بتخيّل ما ستكون عليه أفكاري نفسها، في العشرين سنة القادمة إذ أواجه هذا الأمر من جديد. فمن البديهي أنّنا إذ نموت فلا أهميّة بعدُ لكيف أو متى متنا. وإذن (والأمر الأصعب كان هو أن لا يغيب عن الذهن ما لهذه الـ «إذن» من أهميّة في التدليل)، أقول إذن، ينبغي أن أتقبّل إمكان رفض طلب الاستئناف.

في هذه اللّحظة، في هذه اللحظة فقط، يصير لي الحق، إن جاز التعبير، في أن أسمح لنفسي بمطارحة الفرضية الثانية: أن يُعفى عنّي. المزعج في الأمر هنا هو أنّه كان ينبغي التخفيف من حدّة الانتفاض الذي يعتري دمي وجسدي، ويخز عينيّ بفرح جنوني. كان عليّ أن أتعوّد كبح تلك الصرخة وجعلها معقولة. كان ينبغي أن أظلّ طبيعياً حتّى في حال تحقّق هذه الفرضية، كي أصيّر خنوعي للاحتمال الأول متقبّلاً أكثر. وإذ نجحت في هذا الأمر كسبت ساعة من السكينة. على أنّ هذا الأمر قابلٌ للنظر.

وكانت لحظة شبيهة بهذه اللّحظات، تلك التي رفضت فيها مرّة أخرى استقبال القسّ. كنت مستلقياً، وكنت استشعر اقتراب المساء الصيفي، من شقرة تعلو صفحة السّماء. كنت قد فرغت لتوّي من تخيّل رفض طلب الاستئناف، ومع ذلك كان بوسعي أن أحسّ دفق دمي يجري بانتظام في جسدي. وما كان بي من

حاجة لرؤية القسّ. وللمرة الأولى، منذ مدّة طويلة، تخطر ببالي ماري. كانت قد مضت أيام كثيرة دون أن تكاتبني. وذاك المساء فكّرت في الأمر، وقلت لنفسي لعلّها تعبت من وضعها كعشيقة محكوم بالإعدام. راودتني كذلك فكرة أن تكون مريضة أو ماتت. وهذه الأمور طبيعية، إذ كيف لي أن أعرف، ما دام خارج جسدينا اللذين غدوا الآن منفصلين ما عاد شيء يجمعنا. ثمّ إنّه بدءاً من هذه اللحظة كانت ذكرى ماري تأتيني مغايرة. فميّتة ما كانت لِتهمّني. كنت أجد هذا الأمر طبيعياً، مثلما أتفهّم جيداً أنّ النّاس سينسونني بعد موتي. فلن يكون ثمّة شيء يجمعهم بي بعد ذلك. ولم أكن لأقول حتّى إنّ التفكير في هذا الأمر يشقّ عليّ.

وتلك هي اللّحظة بالضبط التي دخل فيها القس. وإذ رأيته سرت فيّ رجفة خفيفة. لاحظ ذلك، فطمأنني قائلاً: لا تخف. قلت له إنّه يأتي عادة في وقت غير هذا. فأخبرني أنّها زيارة وديّة، لا شأن لها بطلب الاستئناف الذي يجهل مصيره. جلس على سريري، وطلب منّي أن أجلس بجانبه. رفضت طلبه، رغم أنّي كنت أجده لطيف المحيّا.

ظلّ لبُرهة جالساً، ساعداه على ركبتيه ورأسه منحنٍ، ينظر إلى يديْه. وكانتا رقيقتين وبارزتي العضلات. تخيّلتهما حيوانين رشيقين. فركهما طويلاً، واحدة بالأخرى. ثمّ ظلّ على تلك

الحال، خافضاً رأسه، مدّة طويلة حتّى خيّل إليّ، لبُرهة، أنّي نسيت وجوده.

بيد أنّه رفع رأسه بغتة وواجهني قائلاً: «لمَ ترفض مقابلتي؟» أجبته أنّي لا أؤمن بالرّب. أراد أن يعرف إذا ما كنت متيقناً من هذا الأمر، فأجبته أني لا أُتعب نفسي بالسؤال: هو سؤال، يبدو لي، بلا قيمة. عندئذ تراجع للخلف، مسنداً ظهره إلى الحائط وباسطاً راحتيه فوق فخذيه. وقال، كأنّ كلامه غير موجّه إليّ، إنّ المرء ليخال نفسه أحياناً متأكداً، فإذا الأمر على خلاف ذلك. ثمّ نظر إليّ وسألني: «ما رأيك؟» أجبته أنّ هذا الأمر ممكن. ولعلّي في كلّ الأحوال لم أكن متيقّناً تماماً ممّا يهمّني، غير أنّي متيقّن تماماً ممّا لا يثير اهتمامي. وما كان يحدّثني به، على وجه التحديد، لا يهمني.

أشاح بعينيه عنّي، ودون أن يغيّر وضعه، سألنّي عمّا إذا كنت أتكلّم هكذا بدافع اليأس فقط. فقلت له إنّي لست يائساً. كلّ ما في الأمر أنّي خائف، وهذا أمر طبيعي. فقال معقّباً على كلامي: «سيعينك الرّب إذن. كلّ الذين عرفتهم، وكانوا في مثل وضعك، كانوا يرجعون إلى الرّب». أقررت بأنّ هذا حقّهم. وهذا يؤكد أيضاً أنّهم كانوا يملكون الوقت. أمّا أنا فلست أنشد عوناً من أحد، وليس لي وقت أضيّعه فيما لا يهمّني.

وفي هذه اللّحظة، ندّت عن يديه حركة انزعاج، بيد أنّه عدّل جلسته وسوّى ثوبه. وإذ فرغ، ناداني «يا صديقي»، وقال إنّه إن كان يكلّمني بهذه الطريقة فليس لأنّي كنت محكوماً بالإعدام، ففي اعتقاده، أننا كلّنا محكومون بالموت. لكنّي قاطعته قائلاً إنّ الأمر مختلف، ثمّ إنّ هذا الكلام لا يمكن أن يكون عزاءً. ردّ مصدقاً «أكيد. لكنّك ستموت فيما بعد، وإن لم تمت اليوم فالمسألة نفسها تفرض نفسها من جديد. كيف ستواجه إذن هذا البلاء الرهيب؟» أجبته أنّي سأواجهه بالطريقة نفسها التي أواجهه بها الآن.

عند قولي هذا نهض وحدّق في عينيّ مباشرة. وكانت تلك لعبة، أعرفها جيداً. فكثيراً ما كنت أتسلّى بها، مع سِليست أو إمانويل، وفي الغالب الأعمّ كانا هما من ينحّيان أعينهما. والقسُّ أيضاً كان يتقن هذه اللّعبة، عرفت ذلك فوراً: لم تكن نظرته ترتجف. صوته أيضاً لم يرتجف حين قال لي: «ليس لديك إذن أمل في أي شيء، وتحيا بفكرة أنّك حين ستموت سيموت كلّ شيء فيك؟» أجبته: «أجل».

عندئذ خفض رأسه، وعاد للجلوس. قال لي إنّه يشفق عليّ. ففي تقديره أنّ هذا حمل لا يطاق بالنسبة لإنسان. أمّا أنا فلم أحسّ غير أنّه بدأ يشعرني بالضجر. استدرت بدوري، وذهبت أسفل المنور. واتكأت بكتفي على الجدار. ودون أن أتابع ما

يقوله، سمعته وقد عاد يسألني من جديد. كان يتحدّث بصوت قلق مُلِحّ، وفهمت أنّه كان متأثراً، فأنصتُّ له بقدر أكبر من الانتباه.

كان يفصح لي عن يقينه بأنّ طلب استئناف الحكم سيُقبل، لكنّي أحمل وزر إثم يجب عليّ أن أتحرّر منه. وفي اعتقاده أنّ عدالة البشر ليست شيئاً يذكر، فيما عدالة اللّه هي كلّ شيء. قلت إنّ الأولى هي التي حاكمتني. أخبرني أنّها رغم ذلك لم تمحُ خطيئتي. فقلت له إنّي لا أعرف ما الخطيئة. كلّ ما أخبروني به أنّي كنت مذنباً. كنت مذنباً، وسأدفع ثمن ذنبي، ولن يكون لديهم ما يطلبونه منّي بعد ذلك. في هذه اللحظة قام مجدّداً، وفكّرت في أنّه في هذه الزنزانة الضيقة جداً، لو أراد أن يتحرّك لما استطاع؛ فليس له إلا أن يجلس أو يقف دون حراك.

كان نظري مثبتاً على الأرض. خطا نحوي خطوة، ثمّ توقّف، وكأنّما هو لا يجرؤ على الدنوّ. أخذ يحدّق في السّماء، خلَل القضبان. قال لي: «إنّك مخطئ يا بنيّ، بوسعهم أن يطلبوا منك أكثر من ذلك. ولعلّهم سيطلبونه منك.

ـ وماذا سيطلبون منّي؟

ـ بوسعهم أن يطلبوا منك أن ترى.

ـ أن أرى ماذا؟».

نظر القسّ حواليه، ثمّ أجابني بصوت ألفيته فجأة متعباً: «إنّ كلّ هذه الأحجار تعرف الألم، أعلم هذا. لم يسبق لي أن نظرت إليها دون أن يعتريني القلق. لكنّي أعلم، من صميم قلبي، أنّ أكثركم بؤساً حتّى سبق أن رأى وجهاً من وجوه الرّب يتجلّى فيها. وهذا الوجه هو ما نطلب منك أن تراه».

اِنفعلت قليلاً. وقلت إنّي مرّت عليّ شهور وأنا أتملّى في هذه الجدران. وليس ثمّة من شخص أو شيء أعرفه أفضل ممّا أعرفها. لعلّي قد بحثت، منذ زمن طويل، عن وجه فيها. بيد أنّ هذا الوجه كان بلون الشمس ولهيب الرّغبة: كان وجه ماري. بحثت عنها عبثاً أمّا الآن فقد انتهى كلّ شيء. وفي جميع الأحوال، لم أرَ شيئاً ينبثق من رشح هذه الحجارة.

نظر إليّ القسّ بشيء من الحزن. وكنت حينئذ قد صرت متكّئاً تماماً على الحائط، وضوء النهار يسيل على جبيني. وقال كلمات لم أسمعها، ثمّ سألني بسرعة إذا ما كنت أسمح له بتقبيلي. أجبته: «كلاّ». اِستدار، ومشى جهة الجدار ومسح عليه طويلاً بيده. ثمّ همس قائلاً: «أوَ تحبّ إذن هذه الدنيا إلى هذا الحد؟» لم أحر جواباً.

وظلّ مولياً ظهره لي مدّة لا بأس بها. وكان حضوره يثقلني، ويزعجني. وكدتُ أطلب منه أن يرحل، أن يتركني، حين صرخ

بغتة شبه منفجر، وهو يستدير شطري: «كلاّ، لا أستطيع أن أصدّقك. فأنا على يقين من أنّه قد عرض لك أن رغبت في حياة أخرى». أجبته، بالطبع، بيد أنّ ذلك لا يملك من الأهمية أكثر من أن يرغب المرء في أن يكون غنيّاً، أو أن يتمكن من السباحة أسرع، أو أن يُوهب فماً أجمل. سيّان. بيد أنّه قاطعني، ورغب في أن يعرف كيف أتصوّر هذه الحياة الأخرى. صرخت فيه، حينئذ: «حياة، أستطيع فيها أن أتذكر هذه الحياة». ثمّ أردفت، فوراً، أنّي تعبت. أراد أن يستمر في تكليمي عن الرّب، لكنّي اقتربت منه وحاولت، في البداية، أن أُفهمه أنّ وقتي ضيّق. ولا أريد أن أضيّع ما تبقّى من وقتي مع الرّب. حاول أن يغيّر الموضوع بأن سألني لمَ أناديه «سيدي» بدل أن أناديه «أبتِ». أثار هذا الأمر أعصابي، فأجبته أنّه ليس أبي، وأنّه هو أيضاً في صفّ الآخرين.

قال لي واضعاً يده على كتفي: ـ كلاّ يا بنيّ. أنا أقف في صفّك. لكنّك لا تستطيع رؤية هذا، لأنّ قلبك أعمى. سأصلّي لأجلك.

حينئذ، لم أدر لمَ انفجر شيء مّا بداخلي. فبدأت أصرخ بملء صوتي، وشتمته وقلت له ألاّ يصلّي لأجلي. أمسكت بتلابيب ثوبه. وأفرغت عليه كلّ ما يحمله قلبي، وأنا أصاحب ذلك بقفزات فرح وغضب. لقد كان يبدو متيقناً، أليس كذلك؟

ومع ذلك، لا يساوي يقينٌ من يقيناته شعرة من شعر امرأة. هو ليس متيقناً حتّى مّما إذا كان حيّاً، ما دام يحيا كميّت. أمّا أنا فكنت أبدو صفر اليدين، بيد أنّي كنت متيقناً من نفسي، متيقناً من كلّ شيء، أكثر يقيناً منه، متيقناً من حياتي ومن هذه الميتة القادمة. أجل، ما كان لي غير هذا. لكنّي على الأقل، أملك هذه الحقيقة بقدر ما تملكني. كنت على صواب، وإني الآن على صواب، بل لطالما كنت مصيباً. عشت بهذه الطريقة، وكان بالإمكان أن أعيش بطريقة أخرى. قمت بهذا، ولم أقم بذاك. لم أفعل أشياء، في حين فعلت أخرى. وماذا بعد؟ كأنّي انتظرت طيلة عمري كي أبلغ تلك الدقيقة، ذاك الفجر الذي سأنال فيه جزائي. لا شيء، لا شيء كان ذا أهميّة وكنت أعلم جيداً لماذا. وهو أيضاً كان يعلم لماذا. فمن أقاصي مستقبلي، وطيلة هذه الحياة العبثية التي اضطلعت بها، كانت ثمّة هَبَّة مظلمة تتقدّم نحوي، عبر سنوات لم تأت بعدُ، وكانت هذه الهبّة تساوي بين كلّ ما كان يقدّم لي آنذاك، في تلك السنوات التي لم تكن أكثر واقعية من تلك التي أحياها. فيمَ يهمّني موت الآخرين، وحبُّ أمٍّ، فيمَ يهمّني إلهه، والحيوات التي نختارها، والمصائر التي نصطفيها، ما دام سيصطفيني، في نهاية المطاف، مصيرٌ واحدٌ أنا بالذات، ويصطفي عبري الملايير من ذوي الحظوة، ممّن سيدّعون، مثلما يدّعي هذا القسّ، أنّهم إخوتي؟ أوَ يفهم، أوَ

يفهم إذن؟ كلّ النّاس كانوا محظوظين. لم يكن ثمّة سوى المحظوظين. الآخرون أيضاً سيحاكمون ذات يوم. وهو أيضاً سيحاكم. فيمَ يهمّ إن كان متهمّا بالقتل، وأعدم لأنّه لم يبك في جنازة أمّه؟ لقد كانت لكلب سلامانو نفس قيمة زوجته. وكانت تلك المرأة القصيرة الآلية مذنبة قدر ذنب الباريسية التي تزوجها ماسون أو ماري التي كانت تودّ لو تزوّجتُها. فيمَ يهمّ إن كان رايمون رفيقاً شأنه شأن سليست الذي كان أفضل منه؟ فيمَ يهمّ إن كانت ماري تمنح فمها لمورسو جديد؟ أوَ يفهم إذن، هذا المحكوم، وإنّي من أعماق مستقبلي... أختنق بصراخي كلّ ذلك. بيد أنّهم كانوا قد شرعوا في استخلاص القسّ من بين يديّ، وكان الحراس يهدّدونني. أمّا هو فقد هدّأهم ونظر إليّ برهة بصمت. كانت عيناه مليئتين بالدموع. ثمّ استدار غاب.

وإذ انصرف، استعدت سكينتي. كنت منهكاً، فارتميت في فراشي. وأعتقد أنّي نمت، إذ استيقظت وضوء النجوم فوق وجهي. وكانت تصلني أصوات ريفية. وتنعش صدغيّ روائح ليل وتربة وملح. ومثل مدّ بحريّ كانت سكينة هذا الصيف الرائع تتسلّل إلى دواخلي. وفي هذه اللحظة، والليل يوشك أن ينقضي، دوّت صفّارات. كانت تعلن الرّحيل إلى عالم ما عاد يشكّل عندي فرقاً. وللمرّة الأولى، منذ فترة طويلة، خطرت ببالي أمّي. وبدا لي أنّي أفهم لمَ اتخذت لنفسها «خطيباً» في آخر

عمرها، لمَ لعبت لعبة البداية من جديد. هنالك، هنالك أيضاً، حول ذاك المأوى حيث تنطفئ حيوات، هنالك كان المساء مثل هدنة حزينة. وإذ آنست أمّي نفسها قريبة جداً من الموت، لا ريب في أنّها أحسّت نفسها انعتقت وصارت مستعدّة لأن تعيش أيّ شيء من جديد. لم يكن لأحد، لم يكن لأحد، على الإطلاق، الحقّ في أن يبكي عليها. وأنا أيضاً، أحسست نفسي مستعداً لأن أعيش أيّ شيء من جديد. وكأنّما هذا الغضب العظيم قد خلّصني من الألم، وأفرغني من الأمل، إزاء هذا اللّيل المليء بالإشارات والنّجوم. ولأول مرّة أنفتح أمام لا مبالاة العالم الحنون. وإذ آنسته شبيهاً بي إلى هذه الدرجة، وأنّه قد صار أخيراً أخوياً إلى هذا الحدّ، أحسست أنّي كنت سعيداً، وأنّي ما زلت سعيداً. وحتّى يكتمل المشهد، حتّى أحسّ نفسي أقلّ وحدة، بقي لي أن أتمنّى شيئاً واحداً: أن يحضر إعدامي جمعٌ غفير، وأن يستقبلوني بصرخات حقد.

الفهرس

هذا الكتاب

اليوم ماتت أمّي. أو لعلّها ماتت أمس. لستُ أدري. وصلتني برقية من المأوى: «الأمّ توفيت. الدّفن غداً. احتراماتنا». وهذا لا يعني شيئاً. ربما حدث الأمرُ أمس.

